مغامرات

ارسين لوبين

أهل الكهف

عدد ممتاز



٥٠

الفصل الأول

فى حركة فجائية وثب السرجنت مارديث عن دراجته واطفأ مصباحها الكهربائى وانهالت اللعنات والشتائم من فمه كالسيل متدفقة جائحة .. شأن الرجل الذى حذق هذا الفن ونبغ فيه ! وراح يسب حظه فى مرارة . . حظه العثر المنكود وكانت الليلة مظلمة حالكة السواد .. وبلغ من تكاثف الظلام انه لم يستطع ان يتبين قصر هايفيلد . . ومع ذلك فقد كان موقنا من ان هذا البناء الكبير القائم على كثب منه لايمكن الا ان يكون قصر هايفيلد .. فهو بهذه المنطقةخبير عليم .!

ومنذ لحظات راى فى احدى نوافذ القصر وميضا . . . ما ان تلألأ حتى خبا واختفى . ولم يكن فى ظواهر الامور مايثير الريب والشكوك . ولكن ما رديث كان يعلم ان الظواهر فى الأغلب مضللة ..

ان السرجنت مارديث لم يكن يجهل ان رب هذا القصر الكولونيل جون بريدج قد رحل منذ شهور وفى رفقته اسرته وخدمه .. رحلوا جميعا الى اسبانيا ينعمون بشمسها الدافئة .!

فالبيت اذن خال لا يقيم فيه سوى حارسه جورج اسباركس ، بل ان اسباركس نفسه متغيب الان عن القصر .. انه فى هذه اللحظة بالذات جالس فى حانة اليمامة على مسافة ميل من القصر يحتسى اقداح البيرة ، ولم يكن لدى السرجنت مارديث اى شك من هذه الناحية ، فقد لقى اسباركس هناك وشاطره كأسا من الشراب .. ثم تركه فى الحانة ومضى مستقلا دراجته .. فهل طار اسباركس حتى استطاع ان يصل الى القصر قبله .؟

لم يكن مارديث فى حاجة الى شىء من الذكاء لكى يدرك ان فى القصر زائرا ليليا غير مرغوب فيه .. ولا بد ان يكون

لصا اغتنم فرصة غيبة اهل الدار ، فجاء يسطو على المكان ويجرده من كل نفائسه الغالية .

ولقد سب مارديث حظه العاثر لانه كان فى هذه اللحظة وحده .!

لو ان براون كان معه الآن كشانه دائما ـ لتكاتفا وتعاونا .. ولاستطاعا ان يقبضا معا على هذا اللص .

ولم يكن الخوف من مواجهة اللص هو الذى اثار تردد مارديث قبل ان ينتهى الى راى حاسم .. فما كان بالجبان الرعديد الذى يرهب امثال هذه المواقف ، ولكنه كان يخاف ان يشعر به اللص فيفر من الناحية الخلفية ومن السهل ان يفلت اللص اذا لم يحاصره رجلان !

ومضى السرجنت مارديث يحملق فى الظلام الى ناحية القصر ولكنه لم يتبين شيئا .. لم يعد يرى الوميض ، ولم يكن فى هذا شىء من الغرابة فما كان اللص ليستمر على ارسال هذا الوميض والا فضح وجوده .

وفجاة طاف بذهن مارديث خاطر اشاع فى كيانه هزة شاملة .. هذا الطارق الليلى .. لابد أن يكون ارسين لوبين .! ان القصر عامر بالتحف واللوحات الفنية الرائعة .. ومن غير لوبين تجتذبه روائع الفن ؟ وفضلا عن هذا فقد نمى الى علم اسكوتلانديارد ان لوبين شوهد يحوم فى تلك الانحاء منذ اسابيع .!

آه . ! الا ليته يستطيع ان يقتنص لوبين . ! الا ليته يستطيع ان يظفر بهذا المجد العظيم .؟ السرجنت مارديث يقبض على ارسين لوبين .! ياله من عنوان جميل تخرج به الصحف على الناس .! مارديث ولوبين .! مارديث السرجنت المنزوى فى احدى المناطق الريفية .. لوبين العظيم ، لوبين الذى لاينال لوبين الذى دوخ شرطة فرنسا .. وشرطة انجلترا وشرطة امريكا .. وشرطة المانيا .. وشرطة العالم كله .!

عظيم جدا . ! فرصة نادرة .. ! اقبض على ارسين لوبين الليلة وفي الغد اصبح مفتشا ..!

بهذا اخذ مارديث يحدث نفسه وقد استخفه الطرب ..

ولكن .. ولكن كيف السبيل الى هذا ..! كيف يقبض على ارسين لوبين ! لا يجهل احد ان لوبين يمتاز بقدرة فائقة على الافلات ..! انه ذكي واسع الحيلة عظيم الدهاء ... وقد مضت سنوات بعد سنوات وهو يعبث بامهر رجال الشرطة فيحاورهم ويداورهم ويعابثهم ويفلت منهم ! وكم من مرة ضيق عليه الشرطة الحصار والحوا عليه بالمطاردة ومع ذلك فقد استطاع ان يهرب كانه شيطان ..! فهل يستطيع مارديث ان يقبض عليه ..! وكيف يطمع في هذا وقد اخفق من قبله رجال اسكوتلانديارد ومن هم اعظم شانا من رجال اسكوتلانديارد ..؟

فترت همته ... وهبطت حماسته .. وشعر المسكين بمرارة موجعة لو ان هنالك تليفونا قريبا لاستطاع ان يستنجد بنفر من زملائه ولاطبقوا على القصر واقتحموه ..! ولكن مما يؤسف له ان اقرب تليفون انما يقع في حانة على مسافة ميلين ونصف ميل من القصر فلو انه مضى اليها لفرغ لوبين من شانه في خلال هذا الوقت ولانصرف الى داره آمنا مطمئنا دون ان يعترض سبيله احد ... والمعروف عن لوبين انه جم النشاط سريع العمل لايستغرق في سطوه الا وقتا قصيرا جدا .

واخذت الدقائق تتابع والسرجنت مارديث جامد في مكانه يقلب الراي ..

لم يكن هنالك الا حل واحد . هو ان يدخل البيت بمفرده ويفاجيء لوبين .. فهل ينجح ياترى ..؟

لو انه اقدم على ذلك لافلت لوبين من الناحية الاخرى، ولكن ما العمل ..؟ تلك هي الوسيلة الوحيدة ..!

وحمل مارديث دراجته ليخفيها في الخندق الممتد على طول الطريق حين سمع دوى سيارة مقبلة . وطاف بذهنه خاطر فجائي .

ارتد ماردیث الى الطريق مسرعا ووقف في مكان لايرى وهو فيه من نوافذ القصر . وبعد لحظات لاحت السيارة ومصابيحها القوية تبدد ظلمات الطريق . خرج ماردیث الى قارعة الطريق ولوح بذراعه يامر السيارة بالوقوف . وخففت السيارة من سرعتها ثم وقفت .. وبرز رأس من نافذتها وقال : ماذا تريد ..؟

فقال السرجنت ماردیث مجيبا :

اني ضابط بوليس . واريد مساعدة منك

فضحك صاحب السيارة وقال :

— مساعدة مني .. ! ماذا جرى ..! هل اصيبت سيارتك بعطب ؟

— اريد منك ان تعود الى كليثورب لتاتي ببعض رجال البوليس .. ولكن لا ... انتظر ..!

وحدج ماردیث صاحب السيارة بنظرة فاحصة وقال :

— اسمع .. احب ان تشترك معي في القبض على احد اللصوص فضحك الشاب والتمعت عيناه وقال :

— ليس احب الى من هذا .. اين هو ؟

واغتبط ماردیث بهذا الحليف الفجائي .. انه فيما يلوح قوى البنية وثيق التركيب موفور الشجاعة .. وهو ذكي ايضا .. وليس منظورا ان يفسد الامور .

وقال السرجنت ماردیث يشرح ماحدث :

— كنت الآن راجعا الى داري فمررت ببيت خال يعرف باسم قصر هايفيلد . فادهشني ان ارى وميضا في احدى نوافذ الطابق الاعلى .

فصفر صاحب السيارة وقال : شيء عجيب ..!

واسترسل الشرطى يقول :

ـ ولقد كان فى وسعى ان اهاجمه وحدى دون الاستعانة باحد لولا انى اخشى ان يفر من الجهة الخلفية . هذا الى ان غريمنا معروف بالقدرة على الافلات من البوليس . ولهذا جئت انشد معونتك لتراقب انت الطابق الارضى بينما اصعد انا الى الطابق الاعلى لمهاجمته . وبذلك يستحيل عليه الفرار.

وادار صاحب السيارة سيارته الى ركن من الطريق واطفا انوارها ونزل منها وهو يقول :

ـ انى رجلك الذى تستطيع ان تركن اليه .! اننى ادعى يانج .. هربرت يانج .! وسارى هذا اللص كيف يكون الصراع والنضال .! وابتسم الشرطى وقال :

ـ اننى السرجنت مارديث من قوة البوليس السرى بالمقاطعة .. وارجو ان لاتغيب عنك دقة الموقف يامستر يانج. وانك فى حاجة الى ذكائك ودهائك كله .! ان هذا اللص معروف للبوليس تماما .. وان كان لم يقبض عليه حتى الآن. انه يدعى ارسين لوبين .

فهز الشاب راسه وقال :

ـ ارسين لوبين .! ماسمعت بهذا الاسم من قبل .!

ـ هذا جائز فانه لص فرنسى ولم يهبط انجلترا الا منذ عهد قريب الى طبعا لست متاكدا من ان غريمنا هو ارسين لوبين ولكنى ارجح انه هو . فقد شوهد فى الاسابيع الاخيرة يحوم حول هذا المكان .. فهيا بنا ياسيدى . ان لى مقدرة على تمييز الاشباح فى الظلام فارجوك ان لاتاتى صوتا من شانه ان ينبه اللص الينا .

ثم اردف يقول :

ـ وهناك مسالة احب ان اذكرها لك . لقد اعتاد لوبين فى بعض مغامراته ان يرتدى ثيابا سوداء .

ـ ثيابا سوداء .؟

ـ نعم . انه يتشح بالسواد من اخمص قدمه الى راسه القميص والياقة . ورباط العنق والقفاز . وبذلك تتعذر رؤيته فى الظلام فاذا ماسار حسبه المرء قطعة تتحرك فى الظلام ولم يفطن اليه البصر .

ـ ياله من داهية اريب ..!

ـ انه يامستر يانج ادهى لص حملته هذه الارض .

ومشى مارديث الى حيث كانت دراجته يتبعه مساعده. ونزع منها المصباح الكهربائى ليستعين به حين الحاجة . ثم تخطى سياج الحديقة فى خطوات خفيفة حذرة وعبر المرج حتى انتهى الى قصر هانفليد وقد بدا وتسامى فى الظلام .

وامسك السرجنت بذراع صاحب السيارة وهمس فى اذنه يقول :

ـ سنبحث اولا عن النافذة التى دخل منها اللص .

واسرع مارديث الى اقرب نافذة اليه فالفاها موصدة . فانتقل الى سواها فكان لها شان الاولى . فسار الى الثالثة فاذابها كسابقتيها ..

كانت جميع نوافذ القصر موصدة لم تعبث بها يد ولم يقربها انسان .

وحك مارديث راسه مفكرا .

وهمس يانج فى اذنه يقول :

ـ الا يجوز ان تكون قد اخطات .؟

فهز السرجنت راسه وقال :

ـ لااظن ذلك .. كلا .. لم اخطىء . لقد رايت وميضا فى احدى نوافذ الطابق الاعلى .. هذا لاشك فيه .. من المحتمل انه انصرف .

ـ واذا كان قد انصرف فكيف اغلق النافذة وراءه .؟

ـ نعم .؟ كيف اغلق النافذه .؟ لابد انه موجود الآن داخل

القصر ! ولكن كيف استطاع الدخول ؟

فاوما الشاب الى احدى الشرفات وقال :

ـ اليس من الجائز ان يكون قد تسلق الى هذه الشرفة!؟

فقال الشرطى فى حماسة :

ـ هذا جائز .. هذا جائز .. فالقضبان الحديدية تجعل الصعود الى الشرفة سهلا جدا .. انها بمثابة سلالم يتعلق بها المرء .

واسرع الرجلان صوب القضبان الحديدية التى وضعت لكى تتسلقها النباتات .

وقال بانج :

ـ دعنى اصعد الى الشرفة .. اننى اخف منك وزنا واصغر حجما . فتردد ماردیث برهة قبل ان يأذن لصاحب السيارة فى الصعود . ترى ماذا يقول رؤساؤه لو انهم علموا انه تخلف وترك الشاب يصعد وحده الى الشرفة .!

وكأنما أدرك الشاب مايجول بخاطر الشرطى فقال :

ـ لايزعجك امرى .!

وفى اللحظة التالية كان قد تسلق القضبان وصعد الى الشرفة .

وبعد دقيقتين رجع ثانية الى السرجنت ماردیث وقال له

ـ باب الشرفه مفتوح ، والتسلق سهل جدا فيمكنك ان تصعد انت ايضا .

وفى غير تردد تسلق ماردیث القضبان الحديدية حتى استقر على الشرفه فالفى بابها مفتوحا . ثم لحق به بانج .

وتسلل الرجلان الى داخل البيت وهما اشد مايكونان حرصا على ان لايصدر عنهما صوت ينبه اللص . والصق ماردیث فمه باذن بانج وهمس يقول :

ـ سامضى خلفه اما انت فتول حراسة باب الشرفه . واذا افلت منى ساصفر تنبيها لك .

فقال بانج وهو يبتسم :

ـ حسنا .. وثق أن ارسين لوبين لن يتجاوزنى ولا بخطوة واحدة

وتوارى الشرطى فى احشاء الظلام . ومالبث بانج ان سمع قلقلة الارضية الخشبية صادرة من الدهليز الخارجى .

ثم ضحك .! كانت ضحكة خافتة ولكنها صادرة من اعماق قلبه ! انها بلا ريب اجمل مغامرة الدمج فيها ! بل واجمل نكته .! لان هذا الشاب لم يكن يدعى بانج وانما كان يدعى ارسين لوبين .

نعم .. فقد شاءت الصدف أن يستعين السرجنت ماردیث بارسين لوبين على القبض على ارسين لوبين .!

وبعد أن ضحك لوبين ضحكة أو ضحكتين لم يشا ان يضيع ولا دقيقة واحدة .. ان امامه عملا ينبغى أن يفرغ منه.!

وفى حركة سريعة رفع لوبين الوشاح الابيض الذى يلف به عنقه ودسه فى جيبه . ثم نزع معطفه وقبعته ووضعها على مقعد قريب واخرج من جيبه قفازا اسود دس فيه يديه كما اخرج قناعا اسود من جيب من جيوب حزام ادوات اللصوصية الذى يتمنطق به حول وسطه .

وحين لبث لوبين القناع على وجهه والقفاز فى يديه . وحين انكشف منه قميص اسود عندما ازال الوشاح الابيض .. صار اشبه شىء بقطعة من الظلام .!

ثم سار فى نفس الطريق الذى سبقه اليه السرجنت ماردیث

حقا انها ليلة عجيبة .. ليلة المصادفات . فاولا استوقفه ماردیث ليستعين به على القبض على لوبين مع انه هو نفسه لوبين .. وثانيا دعاه الى دخول قصر هانفيلد وقد كان فى نيته ان يسطو على هذا القصر وفى تلك الليلة بالذات .! ولقد صدق ماردیث حين قال ان لوبين شوهد يحوم حول هذا

المكان في الاسابيع الاخيرة .

لقد اعتزم أن يسلب القصر بعض كنوزه فكيف يسبقه اليها لص آخر ..! الا انها لجرأة منقطعة النظير ..! لقد اعتاد لوبين ان يعمل دون ان يقع على منافس يزاحمه .! فهل انقلبت الآية .! لابد له اذن ان ينتقم .!

البيت مظلم .. قطعة من الظلام .. ومع ذلك فان فيه في هذه اللحظة ثلاثة اشخاص : شرطيان ولصين ..!

ولم يكن لوبين ليجهل ان الموقف خطر دقيق .. خطر لاعليه وحده وانما على الثلاثة جميعا ..! كل منهم عدو لصاحبه ..! وستكون معركة حامية اذا ما التقى منهم اثنان. فما بالك اذا ما التقى الثلاثة معا في وقت واحد ..! ان القصر لحقيق في هذه اللحظة بان ينقلب ساحة قتال .!

واتجه لوبين الى السلم دون ان يجرؤ على استعمال مصباحه الكهربائي وكان يصغى ويرهف السمع من لحظة لاخرى دون أن يسمع شيئا .. وادهشه الامر كثيرا اذ لم يكن يتوقع ان تكون لماردبث هذه القدرة على المشى الخفيف .. وكان يسير دون أن يصدر عنه صوت .. كانت مهنته تقضى عليه بمثل هذا الحذر .. وفضلا عن ذلك فهو يلبس حذاء له نعل من اللباد .

واخيرا سمع صوتا .. صوتا خفيفا جدا .. فرقعة لوح من الخشب لاتكاد الاذن تدركها .. وربما كانت فرقعة طبيعية ناشئة عن تمدد الخشب من تلقاء ذاته .. وصدر الصوت من ورائه .. فاستدار على عجل ولكنه لم ير شيئا .. ترى ماسبب هذا الصوت وما مصدره .؟ أصدر من ماردبث ام من اللص .؟ ام عن لوح الخشب ذاته .؟

سؤال لم يكن يدرى له جوابا .

وتجاوز لوبين راس الدرج واتجه الى غرفة صغيرة تقع في نهاية الدهليز .. في هذه الغرفة يحتفظ رب القصر

بدمية يابانية هى التى جاء لوبين يسعى اليها .. لم يكن يبتغيها لقيمتها – فانها لاتذكر الى جانب الاخطار التى يستهدف لها – وانما كان يبتغيها لجمالها الرائع .. لدقة صنعها الفنى .

وقف لوبين عند باب الغرفة يرهف اذنيه .. كان يعتقد ان اللص لابد ان يكون في هذه الغرفة .. والا فلاى غاية جاء يسطو على القصر ان هذه الغرفة تضم مجموعات نادرة من التحف والنفائس جمعها الكولونيل بريدج من جميع انحاء العالم

وللمرة الثانية خيل الى لوبين انه سمع صوتا .. وكان الصوت صادرا من مسافة غير قريبة .. وخيل اليه انه صوت باب يغلق . ولكنه لم يسمع اى صوت من داخل الغرفة .

وضع لوبين يده على مقبض الباب وأداره في رفق وحذر .. ثم دفعه في حركة سريعة .. وفي اللحظة التالية ادرك ان الغرفة خالية ..!

عجبا ..! كان يتوقع ان يجد اللص فيها فكيف يجدها خالية ..؟ والى اية غرفة ذهب اللص ان لم يكن قد ذهب الى هذه الغرفة ..؟ كل شيء فيها على حاله كانما لم تمسها يد .. لاشك ان اللص يعمل الآن في جهة اخرى .. وابتسم لوبين ابتهاجا وقد تمنى أن يلتقى الرجلان ويتلاحما . فان هذه المعركة كفيلة بأن تشغلهما عنه وتصرفهما عن ملاحقته حتى يفرغ من شأنه .

ولم يكن لديه من الوقت ما يضيعه عبثا .. عليه ان يجد الدمية اليابانية التى جاء من اجلها

اغلق لوبين الباب خلفه واضاء مصباحه الكهربائي .. وكان مصباحا دقيقا يرسل خيطا رفيعا من النور يهديه الى الطريق دون ان يفضح وجوده . وسار لوبين الى دولاب في صدر الغرفة فاغتصب قفله باداة اخرجها من المنطقة الى الدولاب ورأى الصندوق الذى فيه الدمية فاخذها

ثم اغلق الدولاب وخرج الى الدهليز ثانية . ولم يسمع اى صوت يثير الشبهات .. ترى اين ذهب اللص الثانى . لا انه ليس موجودا فى الغالب فى الطابق الاول فهل هبط الى الطابق الارضى ..؟

سار لوبين فى الدهليز . وفجأة اصطدم بجسم لين طرى

وفى اللحظة التالية كان لوبين يتدحرج على الارض وقد التحم مع شخص مجهول

ترى من يكون هذا الشخص ..؟اهو الشرطى ام اللص..؟

لم يتسع الوقت امام لوبين للتفكير فقد شعر بضربة عنيفة تصيب فكه .. ثم أعقبتها ضربة أخرى استقرت على خده الايسر . وكانت اللكمات تنهال بسرعة البرق . ولم يكن امام لوبين الا ان يتفادى هذه اللكمات الشديدة التى تناله من كل ناحية دون أن يجد وسيلة يرد بها اللكمات الى خصمه القوى .

واشتدت الملحمة .. وكان لوبين جبارا قوى العضلات مفتول الساعدين . وكانت له خبرة باساليب النضال . ولكن خصمه ايضا كان على غزارة . قويا يحذق طرق النزال..! هذا الى ان خصمه كان اثقل منه وزنا بكثير واعظم جرما . وعلى الرغم من صلابة لوبين ادرك فى النهاية ان لكماته ضائعة لاتفضى الى نتيجتها المرتقبة

وترددت أصوات نضالهما فى الدهليز .. لكمات تتلوها لكمات ؛ وآهات محتبسة مكتومة .. وزفير وشهيق

وجعل الخصمان يترنحان .. ويتقدمان اماما ثم يرتدان خلفا .. ويتباعدا برهة ثم انقض كل منهما على صاحبه . وسمع صوت زجاج يتهشم ثم صوت عنيفه كانما هوى دولاب الى الارض .

وتقدم لوبين ثانية وسدد لكمة قوية اراد منها ان تكون فصل الخطاب .. ولكن اللكمة طاشت ولم تصب الا الهواء .

وسدد لوبين لكمة اخرى بيده اليسرى .. واصابت يده الهدف .. وشعر باسنان تنغرز فى اصابعه .. فاسرع وسدد لكمة ثانية بيده اليمنى الى نقطة يعتقد انها لابد ان تكون وجه غريمه . ولكنه اخطأ التقدير فيما يلوح . فترنح واختل توازنه ومال الى الامام .. وفى هذه اللحظة اصابت فكه لكمة هائلة .. وفى هذه المرة ترنح لوبين الى الخلف .. واعقبت اللكمة الاولى لكمة ثانية . نالت فكه ايضا .. وكانت اللكمة من العنف بحيث ردته الى الخلف مترنحا كالثمل .. وظل لوبين فى تراجعه حتى اصطدم بالجدار .. وشعر بان شيئا خلفه قد انهار .

ثم اخذ يسقط .. اخذ يهوى . الى الاسفل الى الاسفل .. !

وفجأة اصطدم بجسم صلب صدمة عنيفه

واعقب الاصطدام الاغماء .. !

الفصل الثانى

استعاد ارسين لوبين رشده فى بطء وفى الم ... ومرت فترة وهو لا زال مغمض العينين لا يفتحها اذ لم يخطر له ان يفعل هذا .. لم يكن يفكر الا فى شىء واحد .. فى ذلك الالم الشديد الذى شمل بدنه كله .. الم طاغ .. جارف .. لم يكن يصدق ان المرء يمكن ان يصاب بمثله .. !

ولقد حرك بلاغاية معينة يده اليسرى ... ثم اليمنى.. ثم اصابعه ثم كل عضله من عضلات بدنه ... ثم تقلب على احد الجانبين ... وبعد ذلك استدار على الجانب الثانى ... كل ناحية فى جسمه كانت تؤلمه .. وكل وضع كان يزعجه .. عجيب جدا .. ! كيف صارت كل عضلة من عضلاته وكل جارحة من جوارحه فريسة لهذه الاوجاع التى لا لاتطاق ..؟؟

اخذ يعصر ذهنه ويتذكر ماحدث ... نعم .. كان

مستقلا سيارته يخترق بها طرق الريف وشوارعه .. ثم التقى بهذا السرجنت المدعو مارديث .. هذا صحيح .. وبعد ذلك ..؟ بعد ذلك تسللا الى البيت وهذه المعركة الحامية التى دارت بينه وبين اللص ... او بينه وبين الشرطى فهو لايدرى الحقيقة ... كل مايعلم من الامر ان معتديا مجهولا انقض عليه واوسعه لكما ... ثم خيل اليه انه اخذ يسقط .. هوى الى الارض نعم .. هوى ..

وعند ذلك فتح ارسين لوبين عينيه .!

فتح عينيه وفى راسه عشرات من الاسئلة تدور به وتعصف وكلها متركزة فى نقطة واحدة هى : « اين انا الان ..؟ »

ترى اهو الآن فى قصر الكولنيل بريدج .. عند اسفل الدرج مثلا ..! ام تراه خارج القصر منطرحا على المرج الأخضر .! ام تراه فى السجن ..؟ امعلى سرير فى المستشفى.؟

لقد سقط فى الهواء .. هذا امرلاشك فيه . فمن المحتمل جدآ انه هوى من نافذة ... فهل تراه فى احد المستشفيات .. او فى داره فهذا جائز ايضا ..

الثالث هذه الاسئلة على خاطره .. وافترض اربعة افتراضات : المستشفى .. منزله الخاص .. السجن .. قصر هايفليد .. ولو ان الوقت اتسع له لوقع على اربعين فرضا بدلا من اربعة .! ولكنه آثر بدلا من هذا أن يرى وان يتحقق ..

وقد فتح عينيه ورأى ولكنه لم يتحقق ..! ظن نفسه لا يزال فى حلم او اغماء لم يستفق منه بعد .. لم ير فوقه سقف القصر ولا سقف المستشفى ولا السماء الصافية الزرقاء .. وانما رأى سقفا من الحجر .. الحجر الفطرى المتشقق غير المنحوت وغير الممهد ..!

وكان المنظر غريبا غير متوقع فلم يدرك حقيقة مارأى ،

وحرك بضع ثوان وهو واجم ساكن لايفهم ولا يدرك حقيقة ماحوله .. العله فريسة هذيان تسبب عن صدمة اصابت راسه .! خيل له اذن ان يغمض عينيه ثانية .. وقد فعل . واخذ يعد حتى بلغ العشرين .. ثم فتح عينيه ثانية .. فلم ير الا السقف نفسه .. سقفا من الصخر غير المنحوت ..!

لبث برهة يحدق فى السقف الصخرى .. ثم أرسل بصره مع انحدار السقف الى حيث يلتقى بالجدار ..! ومن عجب ان الجدار نفسه كان صخريا .. وانحدر مع الجدار الى الارض .. وكانت الارض أيضا صخرا غير منحوت ..!

وادار لوبين راسه الى الناحية الاخرى .. فى بطء .. بطء شديد لان كل حركة كانت كفيلة بان تسبب له الما شديدا

ومثلما راى الى اليسار .. سقف صخرى .. وجدار صخرى .. وارض صخرية ..! ان من الحماقة ان ينكر ماترى عيناه ..! انه اذن فى كهف من الكهوف ..!

وكان هذا الراى سخيفا غير مقبول فحاول ان ينكره .. كيف يمكن ان يكون فى كهف وقد كان منذ بضع دقائق (ولعلها بضع ساعات) فى قصر هايفيلد يناضل خصما مجهولا ..! لقد اصابته لكمة ردته الى الوراء فاصطدم بشىء .. نافذة فى الغالب .. فتهاوت تحت ثقله وشعر بانه بدا يسقط فى الهواء .. فكيف يجد نفسه فى كهف لايمكن أن يبعد عن القصر اقل من ثلاثين او اربعين ميلا ..؟

هذا راى سخيف لا يقره العقل .

نعم .. ان جسمه اوجاع وآلام ... ولكن عقله لايزال على مضائه وحسن بصيرته .. انه لا يهذى . .انه فى كهف .. هذا امر لاشك فيه .. السقف والجدار والارض .. هاهو ذا يلمس الارضية ويتحسسها انها من الصخر ..!

وفى جهد والم انتصب لوبين جالسا وهو يرجو أن ينكشف له فى جلوسه شىء جديد لم يره فى رقدته ... ولكن الامر ظل

على عهده لا يتغير . وكل ماهنالك ان الجدران والسقف بدأت تهتز .. بدأت تتأرجح .. ولكن بعد ان مضت آثار الصدمة العقلية سكن كل شيء مكانه .

وادار لوبين راسه يسارا فلم ير على قيد خطوات منه الا جدارا صخريا . ثم ارسل بصره الى اليمين فرأى الكهف يمتد نحو عشرين ياردة ثم ينعطف يمينا . انه فى كهف ، مافي هذا شك او ريبة ، ان عقله لايخدعه او يضله ، انه يرى الكهف ، ويشعر به ، ويلمسه ، بل انه يشمه ، نعم يشمه فلهواء الكهوف الرطوب رائحة عفنة لاتخطئها الانوف .

عجبا .! كيف يفسر ماحدث .! كيف جاء او جيء به الى هذا الكهف .! لقد كان منذ لحظات فى باكنج هامشير ، فى قلب المدينة ، فكيف انتقل فجاة الى قلب الكهف .؟

انتصب لوبين واقفا وقد خفت الى حد كبير وطأة الالم التى كانت تنتاب جسده ، وشعر بأن فى وسعه أن يتخذ سبيله الى النور والشمس والهواء النقى

وعندما طاف هذا الخاطر بذهنه اجفل واستولت عليه الدهشة . عندما تسلل الى القصر الكولنيل بريدج كان الليل مرخيا سدوله ، اما الآن فالكهف غارق فى الضوء الناجم من انعكاس اشعة الشمس التى تتسرب اليه من فجوة لايراها لوقوعها خلف المنعطف ، ومعنى هذا انه قد انقضت عشر ساعات منذ كان فى القصر .

واشتدت لهفة لوبين الى اكتشاف الحقيقة واماطة اللثام عن هذا السر الخفى ، كان فى القصر ليلا فاذا به فى الكهف نهارا فكيف امضى هذه الساعات كلها ؟ اظل طيلة الوقت فاقدا رشده ؟

وعلى رغم الالام الجثمانية التى كان يحس بها سار مسرعا الى منعطف الكهف ليكتشف ماوراءه ، على انه ما كاد يبلغ هذا المنعطف حتى جمد فى مكانه مذهولا

لم تكن اشعة الشمس هى التى تضيء الكهف ، وانما كانت تضيئه ثلاث مصابيح كهربائية مثبتة فى السقف على مسافات متباعدة .. !

يا للعجب .. ! انوار كهربائية فى كهف . ! ولكن لاشك فى وجود هذه المصابيح . ليس الامر وهما وخيالا . ! هذى ثلاثة مصابيح ترسل ضوءها فيما حولها فاذا هو يكشف من الصخور كل فجوة فيها وكل ثنية .

سار لوبين على مهل والدهشة مستولية عليه . ولاقدامه وقع غريب غامض تكتنفه الرهبة والغموض . كان يعتقد انه خبير بانجلترا عليم باسرارها فاذا به يدرك غلطته . لقد اقام فى هذه البلاد طويلا فلم يخطر له فى يوم من الايام ان فيها كهوفا تضيئها الثريات الكهربائية . !

على انه طاب نفسا برؤية هذه الثريات . فوجودها دليل على أن الكهف مطروق معروف للناس . واضاءتها فى هذه اللحظة دليل على أن فى الكهف شخصا او اشخاصا سواه .

وبلغ لوبين المنعطف الثانى . وللمرة الثانية جمد فى مكانه مذهولا . !

كان الكهف ممتدا امامه بضع عشرات من الياردات ثم ينعطف ثانية وبين الانحناءين راى لوبين ما ادهشه واذهله . على قيد عشر ياردات منه رأى بيتا صغيرا مشيدا من الخشب .. ! بيتا كاملا مستوفيا . له جدران وسقوف ونوافذ وابواب . وعلى النوافذ ستائر وسجف . ! ولم يكن ينقصه الا شيء واحد . المدخنة . !

ولاح له أن البيت عامر بالسكان . وكان فى الواقع بيتا جميلا . مغريا . جذابا . كان من طراز تلك البيوت التى يتوقع المرء أن يراها على ظهر الارض فى قلب الريف . وكان هناك برميل للقمامة موضوعا عند الباب يا لله .. ! ما الذى يرى . ! بيت فى قاع كهف . !

انه يعلم ان فى اوروبا كهوفا كثيرة . وان نفرا من الصعاليك

والفقراء يقطنون هذه الكهوف . ولكنه لم يكن يعلم ان فى انجلترا كهوفا مسكونة . ! ربما كان هذا البيت مخزنا لبعض الادوات العلمية وانها انما وضعت فى الكهف لاغراض علمية . فاذا كان الامر كذلك فلا ريب ان العلماء موجودين فى الكهف على كثب من البيت . وكان هذا هو التعليل الوحيد المعقول . فى هذا البيت يودع احد العلماء أدواته العلمية ويقوم بتجارب لابد لصلاحيتها من اجرائها فى بطون الكهوف .

وسار لوبين متجها الى البيت وهو يسرع الخطى . وحين اشرف على الدار اقترب من احدى النوافذ وادنى عينيه من زجاجها وراح يختلس النظر الى الداخل .

وادرك على الفور ان شعوره الاول لم تكذبه الحقيقة .. نعم .. ان هذا البناء بيت لا مخزن للادوات العلمية . وانه لبيت جميل . هذه هى الستائر مسدلة على النوافذ وقد طرزت بشريط احمر يلتئم مع لون المفرش المبسوط على منضدة تتوسط الغرفة .

وفى ركن من الغرفة راى مدفأة كهربائية وفرنا كهربائيا . ومقعدين كبيرين صفت فوقهما الوسائد . وكان هناك بوفيه فوقه صحفة فيها موز وعلى الارض سجادة حال لونها . كما كانت على الجدران بضع صور . وفى سقف الغرفة مصباح كهربائى مضاء .

وظل لوبين يدير بصره فى ارجاء الغرفة مذهولا مستغربا . ثم تراجع الى الخلف وهو يهم بالعودة حين فتح الباب فجاة وسمع لوبين صوتا يقول :

ــ هالو . !

اجفل لوبين وارسل بصره الى ناحية الباب .. وعلى العتبة راى بنتا صغيرة مرتدية جونيلا وجرسيا . وكانت تحدجه بنظرات باسمة ضاحكة . وكانت لها عينان جميلتان . وشعرها يتهدل على جبينها خصلات فوق خصلات . !

وعادت البنت تقول مرحبة : هالو . !

فاجابها لوبين فى صوت ميكانيكى اجوف : هالو . !

ــ لقد رايتك تنظر من النافذة .

فاستولت عليه الحيرة وعراه الارتباك وقال مقرا :

ــ هذا صحيح .

ــ ابحث عن بابا ام ماما . ؟

فازدرد ريقه وقال :

ــ كلا .. الواقع انى اردت ان اتبين شكل البيت من الداخل .

فابتسمت وصفقت بيديها جذلا وقالت :

ــ اتحب ان تتفرج على البيت . ؟

ــ ربما كرهت أمك ان اتفرج عليه . ؟

فقالت الطفلة فى ايمان ويقين :

ــ كلا .. كلا .. بل انه ليسرها ان تشاهد بيتنا . ؟ ان امى لطيفة جدا .

وقال لوبين يسألها : وهل يقيم بابا وماما هنا . ؟

فاحنت الصغيرة راسها وقالت :

ــ وانا ايضا اقيم هنا . ! ــ آه .. طبعا ..

وارسل لوبين بصره الى ثياب الطفلة .. كان ثوبها نظيفا انيقا . ولم يكن فيه اى اثر للبلى . ولم يكن هناك اى دليل على ان اهل الطفلة على حال من الفقر ترغمهم على الاقامة فى هذا الكهف محرومين من الهواء والشمس . !

وحين ذكر لوبين الشمس نظر الى وجه الفتاة . كان وجهها يشيء بانها صحيحة الجسم . ولكن وجنتيها كانتا اشبه فى لونهما بالشمع . لم تكن فيهما قطرة من الدم . وكانت عيناها خابيتين مجردتين من تلك اللمعة التى توحى بالصحة الموفورة . !

وقطب لوبين جبينه اسفا .. لم يكن لديه شك فى ان هذه الطفلة قلما رات الشمس .. والا لما كانت لها هذه

الوجنات الباهتة وهذه العيــون الذابلة . ! وداخله غضب شديد على أهلها الذين يحرمونها من هذه النعمة . ! اي اب واية أم . ! انهما بلا شك مخلوقان مجردان من الرحمة . !!

ومال لوبين الى الطفلة وقال يسألها : ما اسمك .

ـ جراسي ميلر .

ثم اردفت تقول : سأبلغ تسع سنوات قريبا .

اتقيمين كثيرا في هذا البيت . ؟

ـ اقيم كثيرا . ! ان ماما وبابا يقيمان هنا باستمرار . ان البيت جميل .. اتحب ان تشاهده . ؟

ولكنه ظل جامدا في مكانه لا يبرحه . بل انه لم يسمع السؤال الذي طرحته عليه الطفلة . ! كان منهمكا في التفكير في شأن اهل هذه الدار . ما الذي يحملهم على الاقامة في هذا الكهف . ؟ وارتد ذهنه مرة اخرى الى مسألة العلماء .. من الجائز ان يكون ابوها حارســا لعدة كهوف تتخذ مخازن للادوات العلمية مثل كهوف شيزلهيرست . ؟

ولكن مهما يكن من الامر فهذا الرجل ـ حارسا كان او غير حارس ـ لابد ان يكون وغدا ونذلا .. اذ كيف يحبس ابنته في هذا الكهف مدى الحياة ويحرمها من الشمس والهواء النقي . ؟ لابد ان يرفع امره الى البوليس بمجرد خروجه من الكهف .

وقال لوبين يسأل الطفلة :

ـ الا تذهبين الى المدرسة يا جراسي . ؟

ـ نعم .. ومس لو هي التي تتولى تعليمي . واني احبها .

ـ وهل تعلم مس لو انك تقيمين في كهف ؟

فنمت عينا الطفلة على الحيرة وهزت رأسها في ارتباك وقالت :

ـ لست ادري ما تعني . ما معنى كلمة « كهف » ؟

ـ كهف . ؟ هذا طبعا . !

ولوح بيده فيما حوله .

ـ فادارت الطفلة عينيها في المكان ونظرت الى السقف والجدران والارضية ثم قالت :

ـ هذا . ؟ ولكن هذا جزء من الدنيا . ؟

ـ آه .. طبعا .. جزء من الدنيا ولكنه يسمى ..

وامسك عن الكلام .. لم يكن خبيرا بمحادثة الاطفال ومداعبتهم ولم يكن يدري كيف يعبر عما يجول في خاطره بحيث يفهم هذه الطفلة ما يرمي اليه .

ثم اردف يقول :

ـ وهل معلمتك تقيم في كهف ايضا . ؟

ـ انها تقيم في الدنيا . !

ـ الدنيا حيث تمطر السماء وتشرق الشمس ؟

فهزت الطفلة رأسها وقالت في ارتباك :

ـ تمطر السماء وتشرق الشمس . ؟ اني لم اسمع هذه الكلمات من قبل .! ما معنى السماء .؟ وتمطر .؟ والشمس.؟ اني لا اعرف لهذه الكلمات معنى . !

ومع ذلك فهي تذهب الى المدرســة . ! واي طراز من المدرسات مس لو هذه . ؟ اي طراز وتلاميذها لا يعرفون معنى الكهوف او الشمس او المطر او السماء . ؟ غريب جدا . ! اتكون هذه الطفلة في التاسعة من عمرها ولا تدري لهذه الكلمات معنى . ؟

وخطرت له فكرة فجائية . يحتمل ان تكون هذه الطفلة بلهاء . ؟ وحدجها بنظرة فاحصة . ! ان هذه العيون المتمعة لا يمكن ان تدل على البلاهة . !

وقبل ان تنفرج شفتاه عن سؤال جديد سمع وقع خطوات تقترب .

وضمت الطفلة يديها وهتفت تقول :

ـ هذى ماما قد جاءت . !

وفى نفس اللحظة ظهرت امراة من خلف المنعطف .. امراة جميلة على شفتيها ابتسامة لطيفة مليئة بالحنان . ! ولكنها ما كادت ترى لوبين حتى غاضت امارات البشر من وجهها وغامت عيناها ووثبت الى طفلتها فامسكت بذراعها ووقفت امامها كأنما تريد ان تحميها من شر مفاجيء وقالت تخاطب لوبين فى جفاء ووحشية :

ـ ماذا تفعل هنا . ؟ الك تعلم انه غير مباح لك أن تدخل الى شارع برنتون . ؟ كيف تجاسرت على الحضور .؟ لابد ان اشكوك . !

فابتسم لوبين معتذرا وقال :

ـ انى اتمنى ان انبئك بما جاء بى الى هذا المكان . ولكن الواقع انى انا نفسى أجهل جواب هذا السؤال . !

وادرك ان المراة لم تصدقه . وقالت فى غضب ظاهر :

ـ لابد ان اشكرك . !

ـ لابد ان اشكوك . !

ـ انى آسف جدا . ! اذ ليس من عادتى ان اتطفل او اتهجم يا مسز ميلر . ولكن قبل ان نسترسل فى هذا الحديث هل لك ان تجيبى على سؤال ساطرحه عليك . ؟ اين انا الآن . ؟

ـ لقد انبأتك بذلك .. انك فى شارع برنتون . !

ـ نعم .. ولكن اين يقع شارع برنتون . ؟ هل هذه الكهوف فى باكنج هامشير . ؟

ـ كهوف . ؟

ورفعت يدها الى فمها على عجل كأنما تريد أن ترغم نفسها على عدم ترديد هذ ه‌الكلمة مرة اخرى . ثم قالت :

ـ هل وصلت حديثا . ؟

فضحك لوبين وقال :

ـ الحق انى لا ادرى كم من الوقت مضى على وانا هنا .؟

لقد اغمى على نحو ربع ساعة فيما اعتقد .

ـ ومن الذى جاء بك .. ؟

ـ هذا ما لا علم لى به .. لقد كنت غائبا عن رشدى .

فقطبت جبينها وقالت :

ـ وهل تدرى من الذى افقدك الرشد ؟

ـ وددت لو اننى ادرى !

ـ الا تعلم من الذى قدم اليك المخدر ؟ هارى نيكولاس ام جورج سوندرز ؟

فهز لوبين راسه وقال :

ـ لم يعطنى احد مخدرا يا مسز ميلر . ! لقد وقعت فاصطدم راسى بالارض وغبت عن صوابى .

وخيل الى لوبين أن وميضا خفيفا التمع فى عينى المراة .. وميضا هو مزيج من الدهشة والخوف والرجاء .. ثم تسارعت انفاسها واخذ صدرها يعلو ويهبط كأنما كان فى كلماته ما ازعجها وما اثار انفعالها .

وعادت المراة تقول :

ـ ولكنك مجرم ؟ اليس كذلك ؟

وكانت كلماتها اتهاما اكثر منها سؤالا ، ولم يكن لوبين على استعداد لان يسمع هذا السؤال ، فاجفل ثم قطب جبينه ، وادرك على الفور أنها ادركت جواب سؤالها حتى دون ان يجيب ، وادرك انها بدات تشمئز منه وتحتقره !

وظل لوبين صامتا لا يتكلم .

وخيرا قالت المراة : لقد خيل الى انك ..

لم امسكت عن الكلام . وهزت كتفيها .

وقال لوبين يسالها : ما الذى خيل اليك يا مسز ميلر ؟

ـ خيل الى انك لست مجرما ، وانك جئت الى هذا المكان بسبب حادث شبيه بالمعجزات .

ولم يفهم لوبين ما ترمى اليه فقال :

ـ ولماذا يكون قدومى الى هذا المكان بسبب حادث شبيه

بالمعجزات ؟ الا يمكن ان يكون بالوسائل العادية ؟ ومع ذلك فأنا اكرر عليك القول بأني لا اعرف كيف جئت ، ولست اعرف اين انا .. ؟

ورأى في عينيها الانكار وعدم التصديق ، وفتحت فيها لتتكلم ولكنها آثرت ان تطبقه دون ان تنطق بكلمة واحدة .. ومالت المرأة الى الامام وجعلت تحدجه بنظرة فاحصة كأنما هناك هاتف خفي يدعوها الى تصديق ما يقول هذا الرجل الماثل امامها .

ومرت لحظات وكلاهما صامت لا يتكلم ، وكان صدرها لا يزال اضطرابه يعلو ويهبط .

واخيرا تكلمت مسز ميلر قائلة :

ــ اتقسم على انك اصدقتني القول .. ؟ وانك لم تحضر الى هذا المكان من تلقاء ذاتك وانك لا تدرى كيف جئت . ؟

ــ اقسم على ان تلك هي الحقيقة .

فهتفت المرأة في يأس : اذن فلينقذك الله .. !

وشعر لوبين بالخوف يتسرب الى نفسه .. كان شجاعا وكان بطلا لا يرهب شيئا .. ولكنه لم يملك الا أن يرتعد امام كلمات المرأة . ولهجتها والقنوط الماثل في عينيها . !

وقال يسألها في لهجة حادة :

ــ فلينقذك الله .. ! من أي شيء . ؟ ما الذي تعنين . ؟

فقالت المرأة تجيبه في كلمات حزينة يائسة :

ــ ستبقى هنا طويلا .. ستبقى مدى الحياة . ؟

ــ مدى الحياة . ! ماذا تعنين .. ! أي مكان هذا . ؟ اين انا الآن . ؟ اجيبي . ؟ اين انا .. ؟

فقالت المرأة في يأس :

ــ انك في ملجأ العصبة السرية .. ! الا فليرحمك الله .. !

الفصل الثالث

لم يخطر ببال ارسين لوبين ان المرأة مصابة بخبل في

عقلها .. ان كلماتها تنم على صفاء الذهن والاخلاص والرحمة نعم ان عينيها تنمان على ان شعورها يلتئم مع كلماتها .. انها تحس رثاء له ورحمة عليه .. انها لا يمكن أن تكون مختبلة العقل .

ولكن ما معنى هذا . ؟ وكيف يقضي حياته في هذا الكهف ؟ وما معنى قولها ان هذا الكهف ملجأ العصبة السرية . ؟

اهي كلمات جنونية ينطق بها شخص غير مجنون .. ! حقا ان اللغز بدا يدلهم .. ! لقد كان في اول الامر يتساءل عما جاء به الى الكهف والآن اصبح يتساءل : كيف السبيل الى الخروج .. ؟

وقال لوبين يسألها في لهجة حادة :

ــ ماذا تقولين . ؟ وما هي هذه العصبة السرية التي عنها تحدثين . ؟ وما الذي يقسرني على البقاء في هذا الكهف مدى الحياة .. ؟ انك تهذين .. من الذي يستطيع ان يرغمني على ..

وامسك لوبين عن الكلام اذ ردد الكهف صدى نداء بعيد ما ان سمعته المرأة حتى بدا الرعب في عينيها جليا وهمست تقول في ذعر :

ــ ادخل .. ! ادخل .. ! ان الحراس قادمون وان رأوك تناولوك في الحال .. ! اسرع .. !

ولما رأته جامدا في مكانه لا يحاول الدخول اخذت بذراعه وجذبته الى الداخل . واغلقت الباب خلفهما على عجل .

والفى لوبين نفسه في قاعة الاستقبال التي رآها من قبل وهو يختلس النظر من وراء زجاج النافذة .

وبعد ان ادار لوبين نظرة سريعة في ارجاء المكان ارتد الى المرأة وقال يخاطبها :

ــ اسمعي .. الا تريدين ان ..

ولكنها عاجلته بوضع يدها على فمه تمنعه من الكلام .

واستغرب لوبين سلوكها . ولكنه آثر الصمت حتى يرى ما ستتمخض عنه الحوادث . وفى السكون الذى اشتمل المكان سمع وقع اقدام تقترب . وارسل بصره الى النافذة فراى ان فى وسعه ان يرى ما يجرى فى الخارج من خلال فجوات الستار الشفاف .

وبعد لحظات بصر برجلين يظهران امام الدار .. كانا مرتديين ثيابا عادية ولكن على راسيهما قبعتين من الطراز الذى اعتاد سائقو السيارات استعماله . وفى مقدمة القبعة شعار ازرق اللون يعلوه خط احمر متعرج المفروض انه يمثل البرق . وعلى ذراع كل حارس شريط يحمل حرف «ج» دلالة على ان صاحبه من الحراس . وكان كل منهما يحمل بندقية صغيرة من الطراز السريع الطلقات .

وكان الرجلان يتبادلان الحديث فى كلمات سريعة . ثم تجاوزا الدار وسارا اماما ، ولما مرا بالبيت امسكت المراة بذراع لوبين تضغطها فى خوف وذعر . وهى تومىء الى فمها باصبعها تامره بان يلزم الصمت .

واتجه الحارسان الى منعطف الكهف الذى جاء منه لوبين منذ دقائق . وبعد لحظات سمع وقع خطواتهما وهما يعودان ادراجهما . فيمران بباب الدار مرة اخرى ويواصلان سيرهما .

ولما خمدت خطواتهما ارخت مسز ميلر قبضتها على ذراع لوبين وتهالكت على مقعد قريب وندت عن صدرها تنهيدة عميقة .

وابتدرها لوبين بقوله :

ــ والآن يمكنك ان تتكلمى يا مسز ميلر .. ؟

ولكنها قاطعته بان قالت :

ــ يجب ان تاوى جراسى الى فراشها اذ حانت ساعة النوم . وبعد ذلك يمكننا ان نتبادل الحديث كما تشاء .. هيا بنا يا جراسى .

ونهضت المراة وسارت تتبعها ابنتها . وعند ما بلغتا باب الغرفة تحولت الطفلة الى لوبين وقالت وهى مشرقة الوجه :

ــ اسعدت مساء يا سيدى .. !

ــ اسعدت مساء يا جراسى .. ارجو لك نوما هنيئا وعميقا .

ــ انى دائما انام نوما هنيئا وعميقا .. اليس كذلك يا اماه .. !

ولما خلا لوبين الى نفسه جعل يقلب وجوه الراى فيما صار اليه .. ان حياته مليئة بالمغامرات . ولكنه لم ير نفسه من قبل فى كهف مضاء بالكهرباء مشيدة فيه دار جميلة .. ولم يقل له احد انه سيمضى حياته كلها فى هذا الكهف .. !

كهف .. بيت مشيد من الخشب .. العصبة السرية .. انذار الموت . البنادق السريعة الطلقات .. ! كل هذه اشياء جديدة عليه غريبة عنده . ! انها اشياء غامضة مستغلقة لا يدرى كيف السبيل الى فهمها وادراك كنهها . ! على ان الشيء الذى اعياه ادراكه هو الكيفية التى وصل بها الى الكهف . اذ يلوح من كلام مسز ميلر ان دخول الكهف اشبه بالمستحيلات . ولكن كيف دخلته هى اذن . ؟ ومن الذى جاء به الى هذا الكهف . ؟ وماذا حل به . ؟

وكان لوبين لا يزال يفكر فى هذه المعضلات دون ان يقع على حل يستريح اليه الخاطر حين رجعت اليه مسز ميلر . وتحدثت المراة فى صوت هادىء قائلة :

ــ الآن وقد نامت جراسى يمكننا أن نتكلم ، فما كنت لاحب ان يجرى هذا الحديث أمامها .

ثم قامت الى النوافذ فاسدلت عليها الستائر واحكمت ضمها بعضها الى بعض حتى لا تكون بينها فجوة يختلس منها الحراس النظر الى الداخل . ثم اضاءت النور الكهربائى واشارت الى احد المقاعد وقالت :

— الا تجلس على مقربة منى حتى تتحدث فى صوت منخفض ؟

وكانت مسز ميلر قد جلست على مقعد ازاء المدفأة الكهربائية .

واستولى لوبين على المقعد الذى اشارت اليه ربة الدار واخرج علبة سجائره وقال يسألها :

— اتدخنين . ؟

فترددت برهة ثم قالت وهى تهز كتفيها :

— اعطنى سيجارة من فضلك . ان التدخين يهدىء الاعصاب .. لقد اهجت اعصابى بقدومك .

وناولها لوبين سيجارة واشعل لها عودا من الكبريت وهو يقول : لماذا . اما السبب . ؟

— لانك تذكرنى بدنيا كم تمنيت لو نسيتها . ! تذكرنى بدنيا فيها شمس ومطر . ! آه . ! يا الهى . ! ارحمنى . ! انى لاضحى من حياتى خمسة اعوام لارى الدنيا مرة اخرى . ! اريد ان ارى الشمس واعدو فى الامطار واشم الحشائش الندية والورود والازاهير . ! اريد ان اشعر بالريح وهى تضرب وجنتى . ! اريد ان ارى ندى الصباح وهو يتساقط على اوراق الشجر ..

ورآها لوبين تقبض اصابعها .. وارتفعت نبرات صوتها وقالت مسترسلة :

— انى اكره ان اتحدث على هذا النحو . ! اكره ان استعيد هذه الذكريات . ! لقد امضيت فى هذا الكهف احدى عشرة سنة . ؟ احدى عشرة سنة رهيبة .. قاسية .. مفزعة .. !

ولولا ان الله ارسل الى جيم وجراسى لقتلت نفسى منذ اعوام واعوام .. من اجلهما صبرت وكظمت والا لقذفت بنفسى الى النهر كما فعل كثيرون من قبلى . !

وامسكت المرأة عن الكلام حين رأت ان الانفعال اشتد بها

وانها وشيكة بان تفقد سلطانها على نفسها . واخذت تدخن بنهم وهى مرسلة بصرها وراء سحب الدخان التى تتصاعد الى سماء الغرفة .

وحين عادت الى تتمة حديثها كان صوتها هادئا ساكنا ونبراته متزنة . وقالت :

— لقد وعدت بان انبئك بسر المكان الذى انت فيه . فهل تعلم شيئا عن هذه المسألة . ؟

— كلا .. لا شىء على الاطلاق . !

— انت هنا الآن فى دنيا العصبة السرية . ! انها دنيا لا يعيش فيها الا القتلة واللصوص والمحتالون ومهربو المخدرات واعداء الانسانية . انها دنيا الاجرام والرذيلة . دنيا يعمرها مجرمون آثروا ان يسجنوا انفسهم فى هذه الكهوف مدى الحياة على ان يظلوا فى الدنيا الاخرى فيقعوا بين ايدى رجال البوليس ويرسلوا الى المشانق او يزجوا فى السجون . !

ورأت فى عينى لوبين سؤالا لم يجر على لسانه فقالت فى مرارة :

— نعم .. انا ايضا كنت مجرمة . ! كنت قاتلة . !

ولم يستطع لوبين ان يخفى اثر هذه المفاجأة فى نفسه فقال : قاتلة . !

وبدا الامر عنده عجيبا . ! كيف تكون هذه المرأة قاتلة وهو لا تتبين فى سيماها الا النبل والشرف والاستقامة . ؟ ان عينيها تنمان على الصراحة والاخلاص فكيف تكون قاتلة ولها هذه الطهارة . ؟ لو انها قالت انها سارقة او محتالة لهان الامر . اما ان تعزو الى نفسها شر الجرائم . ؟

وعضت المرأة على شفتها واسترسلت تقول :

— نعم .. انى قاتلة . . وقصتى عادية مألوفة . كان لى اب وام لم ار احن ولا ابر منهما . ! وقد اوليانى حبا عظيما ودلالا . واخيرا حين بلغت التاسعة عشرة من عمرى شعرت

بات فى احشائى طفلا . ولا داعى لان اذكر لك تفاصيل هذا الحادث . حسبك ان تعلم ان قصتى هى قصة كل فتاة احبت واسلمت نفسها الى من تحب . ! ولم اجرؤ على ان احادث ابواى بما جرى . فلما اقترب موعد الوضع زعمت لهما انى مسافرة عند صديقة لى لامضى عندها شهرا . واستاجرت كوخا فى قلب الغابة الجديدة اقمت فيه .. وهناك وضعت الطفل .

وكانت نبرات صوتها قد اخذت تشتد وتقسو وهى تتحدث كانما تحاول ان تحطم فى قلبها نزعات الشعور الانسانى خشية ان تنهار شجاعتها وتتهدم .

ثم استرسلت تقول :

— ولست ادرى ما الذى حدث بعد ذلك . وهذا هو العذر الوحيد الذى استطيع ان التمسه لنفسى . وربما كانت قد غشيتنى غاشية من الجنون فلم اكن ادرى ما صنعت . لقد قتلت طفلى . ! نعم .. قتلته ودفنته . ! وحين ثاب الى رشدى ادركنى الخوف مما صنعت فانطلقت هاربة من الكوخ . هربت وقد وقع فى روعى ان رجال البوليس يطاردوننى وانه ينبغى ان اختبىء .. يجب ان اختبىء فى مكان لا يعرفه انسان .. وفى ذات يوم جاءنى رجل لا اعرفه وانبأنى بانه سمع ان رجال البوليس فى اثرى وانى متهمة بالقتل . وعقب على ذلك بقوله انهم ان ظفروا بى وارسلونى الى المشنقة بلا نزاع . ثم قال ان هناك وسيلة للفرار من هذه المطاردة وحدثنى عن هذا الكهف . فلم ار ما يحول دون مرافقتى له ولم يخطر لى ببال اى نوع من الحياة سامضيها هنا . ! ولكننى ما كدت اطأ الجنة بقدمى حتى فهمت ما غاب عنى .

فقال لوبين متسائلا : الجنة . ؟

— نعم .. لقد اطلقوا على هذا المكان اسم « الجنة » زيادة فى الترغيب والتضليل .. والواقع انه جحيم لا يطاق .

وسكتت مسز ميلر هنيهة ثم استرسلت قائلة :

— كم كتب الكتاب عن عوالم المجرمين .. وكم ساروا مع الخيال شوطا بعيدا .. الا ليتهم يحضرون الى هذه « الجنة » ليروا كيف تكون حياة المجرمين . ! ليروا كيف تكون الالام والعذاب والجحيم .

وبدات المسكينة ترتعد .. وطغى عليها الانفعال الذى غالبته طويلا وراحت تبكى بكاء مريرا وانهمرت عبراتها . ! وفجاة اخفت وجهها فى يديها واخذت تنشج وتعول فى صوت مسموع .

* * *

ولكن ثورة حزنها ما لبثت ان خمدت ..

جففت مسز ميلر عينيها وارسلت بصرها الى ارسين لوبين وقد ابرقت عيناها والتمعتا .

ولم يغب عنه مثار هذه الدموع التى سكبتها .. ولكنه لم يلق باله الى هذا الامر .. كان ذهنه مكتظا باشياء كثيرة لا عداد لها .. اشياء لا زالت غامضة مستغلقة . !

وفجاة تحول اليها لوبين وقال :

— الا زلت خائفة من السجن . ؟ اعنى من الصعود الى هذه الدنيا . ؟

واوما براسه الى الدنيا « الاخرى » الواقعة فوق الكهف . وضحكت المراة فى تهكم واستهزاء ، وقالت :

— السجن فى الدنيا الاخرى جنة اذا قيس الى هذا السجن الذى اعيش فيه الآن واتعذب . !

— اذن لماذا لا تجربينه . ؟ لماذا لا ترجعين الى الدنيا الاخرى وتحتملين اية عقوبة يمكن ان ينزلها بك القضاء . ؟ انى اعتقد ان القضاة سيقدرون هذه الظروف الشاذة التى احاطت بك واعتقد انهم سيخففون عنك العقوبة .. !

قالت المراة : اعود الى الدنيا الاخرى . ؟

ثم تهدج صوتها وغشيه الحزن والمرارة وقالت :

ـ وهل من سبيل الى العودة . ؟

ـ هل من سبيل . ! طبعا هناك سبيل !. اذا كان الدخول ممكنا فالخروج ممكنا ايضا . !

ـ ليس ممكنا بالنسبة لى .. ولا بالنسبة الى زوجى او ابنتى . ! الخروج محرم محظور الا على رجال مجلس الادارة . ! تقوم على طريق الخروج بوابة ضخمة من الحديد ليس لها الا مفتاح واحد يحتفظ به من يدعى بيكلى .. ومع ذلك فالمفتاح لن يغنى عنا شيئا لو فرض وظفرنا به فان الابواب متصلة بجرس انذار كهربائى يدق دقا متواصلا شديدا اذا مافتحت البوابة فيستيقظ على رنينه اهل الكهف جميعا .!

فقال لوبين فى هدوء :

ـ الاجراس الكهربائية يمكن ان تعطل . ؟

فهزت مسز ميلر راسها وقالت فى مرارة :

ـ انى لم انبئك بعد بكل ما اعلم .. فهناك عدا البوابة الحديدية والجرس الكهربائى حارسان مدججان بالسلاح يقومان عند البوابة ليل نهار . .وهل تدرى ما هو سلاحهما.؟ مدفع مترليوز صغير .. نعم ، ان كلا منهما يحمل بندقية سريعة الطلقات . فلو حاول احد أن يتجاوزهما لافرغا فى جسمه سيلا من الرصاص .

وقطب لوبين جبينه . الآن بدا يدرك حقيقة الامر .. لقد صدقت مسز ميلر حين قالت انه مقضى عليه ان يبقى فى الكهف مدى الحياة ، سيحرم من الدنيا حتى الابد .. الدنيا التى يحبها ويحب ان يمرح فيها ويجرى فى ارجائها . لا الدنيا التى لا تطيب الحياة له الا اذا شعر بانه حر له أن يروح ويغدو فيها كما يشاء ، لا يقيده غل ولا يضمه سجن . ! ؟

ماذا . ؟ اقضى عليه بالا يرى النجوم والقمر والشمس بعد اليوم . ؟ ماذا . ؟ اقضى عليه بأن يحرم من مشاهدة

السماء الصافية والغيوم المتلبدة . ؟ اقضى عليه بالا يسمع ضجة المركبات ونفير السيارات . ؟ أقضى عليه بأن يعيش فى هذه الكهوف مدى الحياة حتى يذبل العمر . ؟ كلا .. كلا .. هذا لا يمكن ان يكون .

وتحول اليها ثانية وقال فى صوت متهدج :

ـ ومن هم اعضاء مجلس الادارة الذى حدثتنى عنه الآن .. ؟ لماذا يريدون ان يحبسوا هؤلاء الناس فى هذه الكهوف مدى الحياة ؟ لاية غاية يفعلون هذا . ؟ وما يعنيهم من امر القوم بقوا او انصرفوا ؟

ـ يعنيهم بقاؤنا لاننا عبيدهم .. ! نحن عبيدهم الارقاء .! بواسطتنا يربحون عشرات الالوف من الجنيهات . عشرات من الالوف تتيح لهم ان يعيشوا فى الدنيا « الاخرى » عيشة بذخ وترف .. !

ـ بواسطتكم يربحون عشرات الالوف . ؟ كيف هذا . ؟

ـ هذه الكهوف هى « مطبخ » لصوصية . ! مصنع لصوصية . ! بوتقة لصوصية . ! نصف المسروقات على الاقل ترسل الى هذ ه الكهوف لتغيير اشكالها او بيعها .. الجواهر التى تسرق من الدنيا العليا ترسل الى هذه الدنيا السفلى حيث تنزع أحجارها فيذاب الذهب ويصاغ على اشكال جديدة لا تمت بصلة الى الحلى القديمة المسروقة .. وترسل هذه الحلى الجديدة الى الدنيا الاخرى حيث تباع فى أمان واطمئنان دون ان يجرى ببال احد انها كانت مسروقة .. وفى هذه الكهوف تزور الاوراق المالية .. يزورون كل نوع من الاوراق المالية عدا الاوراق الانجليزية . لان لرجال مجلس الادارة من الدهاء والذكاء ما يحملهم على عدم اغراق السوق الانجليزية باوراق النقد الانجليزى حتى لا يثيروا ضدهم ثائرة رجال سكوتلانديارد .. حسبهم ان يزيفوا الفرنك الفرنسى أو المارك الالمانى او الدولار الامريكى .. وفى هذه الكهوف

تصنع الصور الاباحية وتطبع الكتب المبتذلة المنافية للاداب. فى هذه الكهوف تنسخ صور مزيفة لاشهر اللوحات الفنية. وجملة القول ان فى هذه الكهوف تتجسد الرذيلة وترتكب كل نوع من انواع الجرائم .. ! اوه . ! ما افظع هذه الحياة . ! افظعها . !

وهز لوبين راسه دلالة على الفهم .. نعم .. ان المجرم اذا ما امن جانب البوليس استطاع أن يأتى المعجزات .. استطاع ان يقدم على اى نوع من انواع الجرائم بلا خوف ولا وجل .. فى وسعه ان يشيد مصنعا لتقطير الكحول دون ان يخشى شيئا .. فى وسعه ان يقيم مصنعا للاسلحة ثم يهربها الى جميع انحاء العالم .. ! فى وسعه ان يفعل اى شيء وكل شيء . !

ولكن من المحتمل ان مسز ميلر تبالغ فى القول .. ! انها مضطربة شديدة الانفعال فلعلها بالغت فى الحديث .. ! اهناك حقا دنيا لا يملك المرء منها فرارا . ؟ هذا كلام فلا .

وفى هذه اللحظة فطن لوبين الى ان الباب يدفع رويدا رويدا وفى حرص وحذر كانما لا يريد الداخل ان يلفت النظر. وفجاة راى فوهة مسدس تبرز من شق الباب مصوبة الى صدره .

الفصل الرابع

كان مستحيلا أن ينقض لوبين على هذا المهاجم المفاجيء لبعد المسافة بينهما .. ودار بعينيه فيما حوله ينشد وسادة او شيئا من هذا القبيل يقذفه به حتى يربكه فلم يجد . وادرك ان عليه أن يتريث وينتظر ما دامت سبل النجاة قد سدت فى طريقه .

وفتح الباب تدريجيا .. ودخل رجل ما راته مسز ميلر حتى تنهدت فى ارتياح وقالت وهى تتنفس الصعداء :

ـ جيم .. لا تطلق النار .. ! اتوسل اليك . !

جيم .. ؟انه اذن زوج مسز ميلر .. ! وتنفس لوبين الصعداء بدوره ..

وقال جيم فى لهجة حادة يخالطها الغضب :

ـ ماذا يفعل هذا الرجل هنا .. ؟ ساقتله كالكلب الحقير ان كان قد اساء اليك .

ـ انه صديق يا جيم .

وحملق ميلر فى ارسين لوبين دون ان يخفض مسدسه وقال فى جفاء :

ـ ليس لنا اصدقاء فى هذا الجحيم .. !

ـ ولكنه وصل الآن توا . ! انه ليس من رجال العصبة السرية . ؟

وما سمع ميلر كلمات زوجته حتى اشتدت دلائل الريبة والتوجس الظاهرة فى ثنايا وجهه وقال : هل ذكر لك هذا .؟

ـ نعم .

ـ اذن فهو كذوب يا سالى . ! ان البوابة لم تفتح اليوم .!

ثم اقترب من لوبين وقد التمعت عيناه غضبا وحقدا .. كان فى هذه اللحظة اشبه بالمجانين .. وقال :

ـ انك جاسوس نذل . ! وسافرغ رصاص مسدسى فى صدرك حتى ولو ذهبت الى الجحيم بسبب ذلك .

وجرت سالى الى زوجها وتعلقت بذراعه فى خوف وذعر وهتفت تقول :

ـ جيم .. ! لا تفعل ذلك يا جيم . ! اقسم لك انه صديق لنا .. انظر اليه .. ! اترى فى وجهه دلائل العداء . ! وفضلا من هذا فانك لا تعرفه . ! ارايت وجهه من قبل . !

ونظر جيم فى امعان الى ارسين لوبين ثم احنى راسه وقال : الحق انى لم أر وجهه من قبل . ولكن ليس معنى هذا انه صادق فيما يروى .. ان البوابة لم تفتح اليوم .

ـ انه لم يات من طريق البوابة .

ـ ماذا تقولين . ؟ لم يأت عن طريق البوابة . ؟ اذن كيف جاء . ؟

وانبرى لوبين فى هذه المرة يجيب على هذا السؤال فقال :

ـ لست ادرى .

وقالت سالى تؤيده :

ـ هذا صحيح يا جيم .. انه لا يدرى كيف جاء .. لقد اغمى عليه فلما استفاق الفى نفسه طريحا على ارض الكهف .

فقال جيم يقاطعها :

ـ دعيه يتكلم عن نفسه .. فى اية جهة من الكهف وجدت نفسك . ؟

ـ هناك .

واوما لوبين براسه الى الناحية التى وجد نفسه فيها عندما افاق .

ولكن هذا الجواب لم يرض جيم اذ ظل على توجسه وريبته وقال فى لهجة وحشية :

ـ يا لك من كذوب ! ليس فى هذه الناحية اى طريق للدخول أو الخروج ، انه طريق مسدود !

فهز لوبين كتفيه وقال فى هدوء :

ـ ولكن هذا لا يغير من الحقيقة شيئا .. لقد وجدت نفسى هناك .. واعقبت هذا سكتة قصيرة .

ثم قالت سالى متوسلة :

ـ لم ترميه بالكذب يا جيم ؟ ان قلبى يحدثنى انه صديق مخلص وانه لا يكذبنا القول . الا تتمنى أن تقع على صديق يخلص لك الود ..؟ فقال جيم فى مرارة :

ـ يعلم الله انى لا اتلهف الى شيء تلهفى الى صديق !

وظل يحدج لوبين بنظرة فاحصة لا يزال الشك مائلا فيها وان خلت من الغضب والحقد ثم قال :

ـ أتريد أن تقول انك تجهل الطريقة التى وجدت نفسك

بها فى هذا المكان ؟

ـ تلك هى الحقيقة . ولقد ظننت فى اول الامر انى نقلت الى هذا المكان نقلا . فقال جيم فى لهجة حادة :

ـ نقلت .. ؟ ومن الذى نقلك .. ؟ ولماذا !

ـ هذا ما لا علم لى به !

فهز جيم راسه فى تهكم وقال وقد عاودته شكوكه :

ـ يلوح لى ان هناك اشياء كثيرة لا علم لك بها ! وهبك نقلت الى هذا المكان فكيف وصلت اليه !

وقال لوبين وقد ضايقته هذه الاسئلة المتوالية :

ـ قلت لك لا اعرف !

ـ ولكن كيف يمكن ان تجد نفسك فى هذا المكان ان لم تكن قد حملت اليه حملا .. هل يمكنك ان تبرهن على انك صادق فى قولك ..؟ ـ وانى لى هذا البرهان ..؟

ـ سنرى ..!

ولوح جيم بمسدسه صوب الباب وهو يقول :

ـ انهض .. واخرج .. فقالت سالى فى انفعال :

ـ جيم .. ماذا تنوى ان تفعل به ..!

ـ ساطلب اليه ان يرينى المكان الذى يزعم انه وجد نفسه فيه عندما استفاق من اغمائه .. هيا .. سر امامى .. واياك ان تتكلم او تحدث جلبة .

ولم يكن هناك مفر من الاذعان .. غادر البيت الى الكهف ثانية وسار فى حذر متخذا نفس الطريق الذى جاء منه وفى اثره جيم وزوجته .. وكان الثلاثة صامتين لا ينبسون بكلمة واحدة وهم يرسلون البصر خلفهم من لحظة الى اخرى كأنما يخشون أن يباغتهم احد .

وبعد دقائق وصل لوبين الى المكان المنشود .. ونسى اذ ذاك ان هناك مسدسا مصوبا اليه فأخذ يفحص الجدران والارضية والسقف على عجل . وما لبث أن تأكد ان الصخر

أصم لا منفذ فيه .

وقال جيم فى لهجة يخالطها التهكم :

ـ هيه .. أفى هذا المكان وجدت نفسك ..؟

ـ نعم . ـ جميل جداً ..! اظن ان الارض انشقت عنك او انك سقطت من السقف .

ولم يكن فى وسع لوبين ان ينكر ان جيم محق فى تشككه وتوجسه . فالصخر كما يلوح أصم مسدود فكيف جاء الى هذا المكان ..؟ ولم يكن لوبين يدرى حقيقة المسافة التى بين الكهف والارض ولكنه رجح انها ليست كبيرة .. فكانت هناك مسألة لا شك فيها وهى انه حمل الى هذا المكان حملا . مادام من المستحيل ان يمر خلال الصخور والاحجار .. ولكن من الذى حمله والدخول والخروج من الكهف شبه مستحيل !..

ومع ذلك فالحقيقة باقية لاريب فيها وهى انه وجد نفسه فى هذا المكان !..

واوما لوبين باصبعه الى نقطة معينة من الكهف وقال :

ـ فى هذا المكان وجدت نفسى !..

وقبل ان يفتح جيم فمه بكلمة واحدة وثبت سالى الى حيث اشار لوبين وانحنت على الارض والتقطت شيئا ما ثم تحولت الى زوجها وفى عينيها دلائل الظفر وقالت :

ـ انظر ..!

وبسطت يدها فاذا على راحتها زر أسود صغير .. زر هو صورة طبق الاصل من ازرار القميص الاسود الذى يرتديه لوبين !..

نظر جيم الى الزر ثم ارسل بصره الى قميص لوبين .. وكذلك فعلت سالى .. ولكنها فطنت الى شىء آخر لم يفطن اليه زوجها فاسرعت تزيح رباط العنق قليلا وتشير الى موضع زر ضائع وهى تقول :

ـ جيم ..؟ هل اقتنعت الآن ..؟

فاحنى زوجها راسه وقال : ـ اقتنعت !..

ورد المسدس الى جيبه دلالة عن انه اقتنع حقيقة واردف يقول :

ـ الآن سنعود الى الدار فليس من الحكمة ان يرانا احد خارج البيت فى مثل هذه الساعة من الليل .

ولما احتواهما المنزل مرة اخرى دعا جيم لوبين الى الجلوس وقد تغير سلوكه وزايلته الشكوك . بل لقد كان الآن ودودا بقدر ما كان من قبل نفورا متوجسا . وكانت عيناه تلتمعان ببريق الثقة والاطمئنان .

وقال ميلر يسأل لوبين :

ـ والآن هل لك ان تحدثنى بما كان قبل وصولك الى الكهف .. ام لعلك ترى فى هذا السؤال فضولا غير مستحب ؟

وقال لوبين يسأل بدوره :

ـ دعنى قبل ان اجيب على هذا السؤال ان اطرح عليك سؤالا آخر . هل جميع اهل الكهف مجرمون ؟

ـ كانوا جميعا مجرمين ! نعم كانوا .. فان الفرصة لا تتاح لهم الآن لارتكاب الجرائم فى الكهف .

ثم اردف بحرارة :

ـ وهذا ما يجعل « هذه » الدنيا نقية طاهرة !

فقال لوبين يسأله فى صراحة :

ـ وهل كنت انت أيضا مجرما ؟؟.

فعض جيم على شفته فى أسى ومرارة وقال :

ـ نعم . كنت احمق مجنونا ..! كنت اشغل منصبا محترما فى احد البنوك الكبيرة . واتفق ان اقترضت يوما مبلغا من المال عجزت عن تسديده فسولت لى نفسى ان اختلس من خزانة البنك قدرا أقامر به على أظفر بمضاعفته فاسد دينى . ولكنى خسرت . فاختلست مبلغا آخر لحق بسابقه فما كان منى الا ان هجرت عملى وفررت هاربا الى ليفربول . وقرات

في الصحف ان رجال البوليس في أثري وانهم يبحثون عني .
وفي ذات يوم جاءني رجل تودد الي وصارحني بان الطريقة الوحيدة للهرب من البوليس هي ان الوذ بهذا الكهف حتى تهدأ الضجة فأخذت بالمشورة التي ألقيت الي . وها انذا في هذا الكهف منذ هذه اللحظة أي منذ ثلاثة عشر عاما !

وانهار صوته وقال في يأس :

ـ ثلاثة عشر عاما وانا اعيش في هذا الجحيم ..! لا ارى الشمس او النور ..! ثلاثة عشر عاما وانا سجين في أسوأ السجون ..! وذلك هو قصاصي لأني اختلست ثلاثمائة جنيه!

وأمسك عن الكلام ونظر الى زوجته برهة ثم استرسل يقول : ـ ولقد كانت الحال حقيقة بأن تكون شرا من هذا لولا ان ساق الله الي سالي . فقد التقيت بها عقب انضمامي الى العصبة السرية فأحببتها واني لأحمد الله على ان بادلتني هذا الحب فتزوجنا وعشنا سعيدين .. كما يسعد الناس هناك .. فوق ..!

واشار الى سقف الغرفة يعني بذلك « الدنيا الاخرى » .
وقال مستطردا :

ـ أليس كذلك يا سالي ..؟ الست سعيدة مثلي ؟

وزايلت سالي مقعدها وعبرت الغرفة الى حيث كان زوجها فقبلت جبينه ووقفت خلفه وجعلت تعبث بأصابعها في شعره . وهمست تقول :

ـ ما اسعدني بوجودي الى جانبك أيها الحبيب ؟

وتحول جيم الى لوبين ثانية وقال :

ـ ووجود سالي الى جواري يشعرني بالحرية التي تنقصني ، ولعلك تسألني الآن عما يزعجني .؟ ولماذا لا تطيب لي الحياة في هذا الكهف ولي زوجة تحبني وابنة متعلقة بي ؟

وتقبضت يداه وقال في صوت يفيض تأثرا وانفعالا :

ـ نعم ..! ان الطبيعة هي التي تنقصني ..! اني في

حاجة الى الطبيعة وعناصرها المختلفة .. الشمس .. والهواء .. والامطار .. الامطار النقية المنعشة ..! يالله ..! اني لانزل من حياتي عن اعوام واعوام لكي اشعر بمياه المطر وهي تسيل فوق راسي وتبل ثيابي ! والرياح ؟ والحقول الخضراء ؟ والورود والازهار ؟ تلك هي الحياة ! قبل ان اهبط الى هذا الكهف لم أكن أقدر الطبيعة كما ينبغي ! وكنت اشعر بأني لن انزعج اذا ما حرمت من المطر أو الشمس .. أما الآن فأصبحت اعرف لكل هذه العناصر قيمتها التي لا تقدر ! وفي كثير من الأحيان أحلم بالطبيعة .. أرى في نومي يختا يجري فوق البحار ..! او أرى عاصفة تهب وتقتلع الأشجار ، فاذا ما استيقظت من نومي بكيت .. بكيت طويلا بلا حسرة على ما خسرت وفقدت ..!

واخذ جيم بيد سالي وجعل يضغطها في رفق وحنان واردف يقول :

ـ وادهى من هذا وابعث على اثارة الحزن اننا رزقنا طفلة ..! كانت مصدر هنائنا ، ولكنها أيضا مصدر شقائنا .. اننا نفكر في مستقبلها ونتساءل عما اذا كان قد قضى عليها بأن تظل حبيسة في هذا الكهف مدى الحياة !

فقال لوبين : ـ لقد رايتها ! انها طفلة جميلة !

ـ نعم طفلة جميلة ! انها ملاك ..! وعندما افكر في انها ستعيش في هذا الكهف الى الأبد محرومة من رؤية الدنيا اكاد أجن .. يا الهي ايقضي على هذه المسكينة البريئة بأن تعيش هنا اعواما بعد اعوام لا ترى شمسا او نورا او مطرا ..! انها بريئة لم تجن ذنبا ، فلم يقع عليها هذا العذاب الأليم ..؟ عندما تدور هذه الخواطر في ذهني اشعر بأني وشيك ان افقد الرشد ..!

وانتزعت سالي يدها من بين كفي زوجها ووضعتها على وجهها ، واخذت تبكي وصدرها يعلو وينخفض انفعالا ..

وقالت : — جيم ..! اسكت .. اسكت ..! بالله عليك لا تطرق هذا الحديث ..!

وتصلبت عضلات وجه المسكين وقال :

— لن اتكلم يا سالى .. لن اتكلم ..! على ان هناك عزاء واحدا يخفف وقع هذه الخواطر الجنونية وهو اننا علمناها ان هذه الكهوف هى الدنيا ..! لم نذكر لها ان هناك دنيا اخرى حتى لا تترعرع وفى قلبها حسرة كتلك التى فى قلب ابويها . انها لا تعرف حقيقة الدنيا الاخرى ، لم ننكر عنها ان هناك دنيا اخرى ، ولكنها لا تعرف ان هناك اشياء اسمها الشمس او الامطار او الازهار ..!

وساد الصمت برهة ثم قال جيم وقد ارتد الى الحديث الاول بعد ان تكلم عن شجونه طويلا :

— ولكن لماذا سألتنى عما اذا كنت مجرما ؟

فقال لوبين :

— لأن اجابتك تجعل من السهل على أن اذكر لك كيف جئت الى هذا الكهف !

فجرى جيم على جبينه براحة يده وقال :

— هذا صحيح ..! لقد كدت انسى ..! لقد طغى على الانفعال فنسيت انى لم اسمع قصتك !

وتكلم لوبين قائلا :

— انى لص .. ولكنى لست هاربا من البوليس !

ثم أردف يقول :

— او انى لست هاربا الآن على الأقل ..! انى لص بدافع من حب المغامرة ..! انى مولع بأن اتحدى البوليس وقوات العالم اجمع ..! ولا احب الى نفسى من ان انتصر واهزم سواى ..! وكم يسرنى ان اغتصب خزانة وانا اعلم ان رجال البوليس يطرقون الباب ..! وثق انى لست فى حاجة الى المال .. لانى اوزع الشطر الاكبر مما اسرقه على الفقراء

والمستشفيات والجمعيات الخيرية ..!

وحملق جيم فى لوبين وقد اتسعت حدقتاه وقال :

— لص ..! وتوزع ما تسرقه على الجمعيات الخيرية والفقراء ..! انك اذن ارسين لوبين ..! وقميصك الاسود !

فابتسم لوبين وقال :

— نعم انى ارسين لوبين .. ولكن ما الذى تعرفه انت عن لوبين ؟

فابتسم جيم بدوره ونهض واقفا وعبر الغرفة وفتح احد الابواب المتصلة بها فسمع لوبين انغام موسيقى صادرة من جهاز الراديو ثم صوتا يقول : « هنا محطة الاذاعة الامبراطورية البريطانية » . وقال جيم :

— ان الراديو كما ترى هو حلقة الاتصال بيننا وبين هذه الدنيا الاخرى .. انه يأتينا بأنبائها واخبارها .

ثم رجع يحمل صحيفة المورننج بوست وهو يقول :

— والصحف ترد الينا ايضا وان كانت لا ترد بانتظام . وقد لا تصل الينا الا بعد صدورها بأيام غير قليلة .. وهكذا عرفت بأمر ارسين لوبين وان امضيت فى هذه الكهوف ثلاثة عشر عاما .. اذن فانت ارسين لوبين ..! ومع ذلك فقد جئت من تلقاء نفسك الى هذه الدنيا التى لا يخرج منها من يدخل اليها . فلماذا جئت ؟

وقص لوبين على رب الدار تفاصيل ما حدث مذ التقى بالسر جنت ماردين الى حين استفاق من اغمائه فالفى نفسه فى الكهف .

* * *

اصغى جيم وسالى الى حديث لوبين دون ان يقاطعاه بكلمة واحدة حتى اذا انتهى من قوله تكلم جيم قائلا :

— فى اية ساعة من ساعات الليل سطوت على قصر هايفيلد ..؟

وكان صوته متهدجا من اثر الانفعال ويداه تقبضان على مسندي المقعد في اهتياج . وقال لوبين يجيبه :

ـ في نحو التاسعة والنصف مساء .

ـ مساء .. ؟ اي مساء .. ؟

ـ الليلة .. السبت .. ـ الليلة .. !

وانبعث جيم واقفا وقد استخفه الطرب .

ـ الليلة .. ! الليلة .. ! ان الساعة الآن الحادية عشرة والنصف لقد سمعت منذ قليل دقات الساعة عندما ادرت جهاز الراديو .. هذا معناه انك لم تحمل الى الكهف ولم تأت من طريق البوابة .. فالوقت اضيق من أن يتسع لهذا .. لقد مضت ساعتان فقط منذ سطوت على القصر .. !

فقالت سالي متسائلة :

ـ اذن فكيف وجد مسيو ارسين لوبين نفسه ؟

فقاطعها جيم بأن قال في اهتياج :

ـ تماما .. هذا هو السؤال الذي يدور في خاطري .. ! اذا كنت لم تحمل وتنقل الى الكهف فلابد انك سقطت اليه ؟

ـ من خلال الصخر .. ؟

ـ لا ادري .. ! اني عاجز الآن عن التفكير .. ولكن المؤكد انك سقطت من قصر هايفيلد الى الكهف مباشرة .. آه .. ! يا الهي .. !

ووثب جيم وجعل يرقص في أرجاء الغرفة وقد استخفه الطرب . وقالت زوجته تسأله :

ـ ماذا جرى يا عزيزي .. !

ـ الم تفهمي بعد يا سالي .. ! ما دام هناك طريق للدخول فلابد ان هناك طريقا للخروج .. ! فاذا استطعنا ان نهتدي الى هذا الطريق امكننا ان نرجع الى الدنيا مرة اخرى !

ـ الدنيا .. !

همست سالي بهذه الكلمة في صوت لا يكاد يسمع وقد

ضمت يديها في انفعال ،

وتحول جيم الى لوبين وقال :

ـ الست على صواب في ظني هذا يا لوبين .. الا تشاطرني هذا الراى .

ولم يغب عن لوبين ان الزوجين شديدا الانفعال وانهما وقد ظنا ان هناك طريقا للفرار ، اقلبا ادنى الى الجنون . ولم يشا ان يخيب رجاءهما نعم .. ما دام هناك طريق للدخول فلابد ان يكون هناك طريق للخروج .. ! هذا صحيح .. ولقد طرات هذه الفكرة ببال لوبين وهو طريح على الارض بمجرد ان فتح عينيه . ولكن النظرة العاجلة التى القاها على سقف الكهف وجدرانه جعلته يقنط من الاهتداء الى منفذ سرى . ومع ذلك فقد يسفر البحث الدقيق عن الاهتداء الى هذا المنفذ .. كما انه قد لا يسفر عن شيء .

ولم يجسر لوبين على مصارحة الزوجين بما يساوره من شكوك ووساوس . اذ لم يطاوعه قلبه على أن يحطم آمالهما بمثل هذه القسوة ولكنه قال اخيرا :

ـ لست متأكدا مما اذا كنت اشاطرك هذا الراى ام لا ؟

فدار اليه جيم وقال وقد قطب جبينه :

ـ ماذا تعني .. ؟ ثم صرخ في صوت حاد :

ـ لا بد ان هناك طريقا للخروج .. ! ما دمت قد دخلت فلابد انك تستطيع ان تخرج .. !

ـ هذا صحيح .. ولكني لم ار طريق الخروج يا مستر ! ولو اني اهتديت اليه لكنت الآن في الدنيا الاخرى ولما رايتني في دارك اتحدث الى زوجتك .. وعندما جئت الى بيتك انما كنت أبحث عن طريق الخروج .. !

وادرك جيم حقيقة الموقف .. وخبت النار المتقدة التى كانت تلمع في عينيه . وتهالك على احد المقاعد يائسا ثم غمغم في صوت محزون :

ـ يا لى من مجنون . . ! نعم . . كان ينبغى ان ادرك ان الفرار ليس سهلا الى هذا الحد . . ! ومع ذلك . . ومع ذلك كيف دخلت الى الكهف . . ؟

وقال ارسين لوبين :

ـ اصغ الى . . انى لم اقل ان ليس هناك طريق للفرار ، ولكنى اردت ان اقول ان الاهتداء اليه ليس بالامر الهين . فهل فهمت . . ؟ فهز جيم راسه فى يأس وقال :

ـ كلا . . فقالت سالى مقاطعة :

ـ اما انا فقد فهمت . . انصت الى يا جيم . . يخيل الى انى فهمت ما يرمى اليه ارسين لوبين . . انه يعلم اننا متلهفون الى النجاة والفرار . . وان الانفعال قد يفقدنا الصواب فنرتكب حماقة تودى بنا . فهو يريد منا ان لا نندفع مع الرجاء فنفسد بحماقتنا خطته . فعلينا اذن ان ناخذ انفسنا بالتريث والصبر . والا احدق بنا الخطر . . !

ـ الخطر . . بل قولى الموت . . انسيت ما نزل بسميث؟

فارتعدت المراة المسكينة رعبا وقالت :

ـ ومن اجل هذا يجب يا عزيزى ان نسيطر على اعصابنا . . يجب ان نعمل فى هدوء وأناة . . اليس هذا هو ما ترمى اليه يا لوبين . . ؟ ـ نعم .

فتنفس جيم الصعداء وتحول الى لوبين قائلا :

ـ افى نيتك ان تحاول الفرار من هذا الكهف يا لوبين ؟

ـ طبعا . . ـ وهل تسمح لنا بأن نصحبك ؟

ـ بكل تاكيد ما دمت مستعدا لاحتمال عواقب الفرار ؟

ـ ماذا تعنى . . ؟

ـ ان للبوليس ذاكرة قوية لم تضعفها الثلاث عشرة سنة

فهز جيم كتفيه بلا احتفال وقال :

ـ فليكن . . ! انى لا ابالى السجن فى سبيل سالى وجراسى . فى سبيلهما لن اضن بحريتى . . ! الست هنا

سجينا . . !

وكانت فى صوته نبرة شجاعة اعجبت لوبين . . نعم . . ان فى وسعه أن يعتمد على هذا الرجل ويركن الى مساعدته . فهو على رغم انفعاله رجل متزن الاعصاب ثابت العزم .

وبعد سكتة قصيرة قال لوبين :

ـ وهل اضواء الكهف تظل طيلة الليل ؟

ـ الليل . . ؟ وهل يفرق المرء هنا بين الليل والنهار . . ؟ ان الحياة كلها عندنا ليل متصل لا نهار فيه . . ! والاضواء مشتعلة دائما . . لا تطفا لحظة واحدة . فرجال مجلس الادارة يخشون ان اطفئت الانوار ان يحدث هياج بين اهل الكهف ويبيتون المؤامرات للفرار .

ـ والحراس . . ؟ ايطوفون بالبيوت فى مواعيد محددة ؟

ـ كلا . . انهم يأتون او ينصرفون حين يطيب لهم القدوم او الانصراف . والاحكام العرفية تعلن دائما اذا ما انتصف الليل . وتنذر ذلك صفير طويل حاد . . فاذا ما سمعنا هذا الصفير عرفنا ان الليل قد انتصف . ولدى الحراس اوامر صارمة تقضى عليهم باطلاق النار على كل من يرونه خارج الدور عند انتصاف الليل حتى الصباح أى حتى نسمع الصفير الطويل مرة اخرى .

وهز لوبين راسه وقال :

ـ والآن قد أوشك الليل ان ينتصف ؟

ـ نعم .

ـ واذا رآك الحراس خارج البيت الآن اطلقوا عليك النار؟

ـ نعم .

ـ اذن يجب ان تلزم دارك يا جيم فلا ترافقنى .

ـ ماذا تعنى . . ؟

ـ ان لك زوجة وطفلة فعليك ان تفكر فيهما . الزم الدار ريثما اقوم انا بفحص الكهف .

فضحك جيم ضحكة مرة وقال :

ـ ما عساك تقل بي يا لوبين ..؟ اتحسبني جبانا ؟ ان سالي نفسها لا يمكن ان ترتضي بقائي في الدار وانت في الكهف تبحث عن المخرج مستهدفا للخطر .

وكانت سالي ممتقعة اللون ولكنها كانت بادية الشجاعة . وقالت وهي ممسكة بذراع جيم :

ـ ان زوجي على حق فيما يقول ..! وفضلا عن ذلك فقد تكون في حاجة الى معونته . فسقف الكهف مرتفع وقد تحتاج الى من يحملك فوق كتفيه حتى يتسنى لك فحصه .

وجعل لوبين ينقل بصره بين الرجل وزوجته .. ماذا .. ايسمح له بمرافقته ، فاذا اطلق عليه الحراس النار ، كان هو المسؤول عن هذه النكبة امام ضميره ..؟ ولكنه رأى في وجهي الزوجين شجاعة وعزما فقال :

ـ حسنا . فليكن .. سنذهب معا . فهل انت على استعداد ؟ ونهض جيم واقفا وقال في بساطة :

ـ اني لعلى تمام الاستعداد ..!

ومد لوبين يده فصافح جيم الباسل الشجاع .

ودون ان ينطق جيم بكلمة واحدة . عبر الغرفة وفتح الباب وخرج الى الطريق . دون ان يدير راسه الى لوبين او الى سالي حتى لا يريا العبرات التي اغرورقت بها عيناه ..!

الفصل الخامس

وقف الرجلان برهة عند الباب جامدين لا يتحركان ولا يتكلمان وقد ارهفا الاذن للسمع .. ولكنهما لم يسمعا الكهوف ترجع اي صدى فادركا ان اقرب الحراس اليهما على مسافة بعيدة .

وفجأة دوى صفير شديد عكر صفو السكون فاستدار جيم الى صاحبه وهمس يقول في صوت لا يكاد يسمع :

ـ نصف الليل ..!

ـ اذن فقد اعلنت الاحكام العرفيــة منذ هذه اللحظة . حق الموت على من يرى خارج داره .

وقال لوبين همسا :

ـ لقد مر الحراس بدارك منذ اقل من ساعة فمتى يحتمل ان يعودوا ..؟

ـ لا ادري .. ربما بعد خمس دقائق وربما بعد ساعتين .. ليس لطوافهما موعد معين ولا سبيل لنا الا وقاية انفسنا من المفاجأة .. ولكن اذا حالفنا الحظ ..!

وهز جيم كتفيه هزة اليأس .

ـ أمسدسك معك ..!

ـ نعم .. ولكن دوي الرصاص كفيل بالضرر بدلا من النفع فان اضأل الاصوات يسمع في هذه الكهوف على مسافة بعيدة ..

ـ اذن فلا مفر لنا من الركون الى الحظ وحده .

وسار لوبين امام صاحبه وهذا في اثره . وقد علمته سنوات التجارب ان لا يكون لخطوه وقع مسموع . على نقيض جيم الذي كان حذاؤه يحتك بالارض وان لم يرسل الا صوتا خفيفا .

ودار الرجلان حول المنعطف الاخير وقد خلف وراءهما آخر مصباح كهربائي من تلك المصابيح المثبتة في السقوف . لم يكن هناك مصباح يضيء العشرين ياردة الممتدة امامهما انما كان الضوء يصل اليها من المصباح الخلفي بما يكفي لانارتها انارة تبدد الظلام بعض التبديد .

وادرك لوبين ان جيم لم يكن كاذبا حين تحدث عن الاخطار التي تتهددهما . فالكهوف مضاءة ومكشوفة امام البصر فلو ان احد الحراس حضر الآن فجأة لاستحال عليهما الاختباء ولكان في ذلك موتهما المحقق . فمن الخير اذن ان يعودوا الى الدار باسرع ما يمكن

وانتهى الرجلان اخيرا الى اقصى الكهف الى حيث وجد

لوبين نفسه عند ما افاق من اغمائه .

واخذ لوبين يفحص الجدران .. فحصها مرة بعد مرة دون ان يقع على شئ يبشر بالرجاء .. وللمرة الثالثة فحص الجدران .. هذا غريب ..! اذا لم تكن الظواهر خداعة فلابد انه وصل الى هذا المكان محمولا .. لا يمكن أن يكون قد سقط اليه من منفذ سرى . ان الصخور صماء .. ان سطحها حقيقة غير أملس وفيه شقوق وثنيات كثيرة . ولكنها كلها طبيعية لا تخفى جهازا اذا ضغط او جذب انشق الجدار وانفتحت فيه فجوة للمرور .

على ان التجارب قد علمت لوبين ان لا يركن فقط الى ما تراه العيون . وان عليه ان يستعمل يديه ايضا . فأشار الى جيم بستدنيه منه وهمس فى اذنه يدعوه الى فحص الجدران والارضية بجسها والدق عليها دقا خفيفا فلتصدر منها صوت اجوف يدل على ان وراءها فراغا . واختص كل منهما بمنطقة يوالى فحصها .

ومرت عشرون دقيقة والرجلان يفحصان ويدقان على الصخور . والصوت الذى يصدر منها اصم مكتوم . واخيرا وقد فحصا كل شبر فى الارضية والجدران وقف الرجلان يتبادلان نظرة صامتة . وكان جيم باذى الياس . على نقيض لوبين الذى لم يكن يتوقع غير هذه النتيجة .

ـ وقال لوبين : ايمكنك ان تحملنى على كتفيك ..؟

فاحنى جيم راسه . فقال لوبين :

ـ اذن افسح ما بين قدميك .

وانحنى جيم فوثب لوبين الى كتفيه وجلس . ثم اعتدل جيم واخذ لوبين يقف مستندا الى الجدار حتى استطاع ان يبلغ السقف .

وبينما كان لوبين منهمكا فى فحص قطعة كبيرة من الصخر ناتئة فى السقف همس جيم يقول : لوبين ؟

ـ نعم .   ـ انصت !

واحنى لوبين راسه واخرجها من بين فجوات الصخر فسمع ما افزع جيم . سمع وقع اقدام تقترب مصحوبة باصوات تتحدث .   ـ انزلنى اذن ..!

وخفض جيم راسه ووثب لوبين الى الارض . وعندما نظر الى عينى جيم راى فيهما بريق الياس والقنوط . وقد انعقدت على جبينه قطرات العرق . وتحركت شفتا جيم ولكنه لم يقل شيئا . فعرف لوبين انه يصلى . يصلى تهيؤا لاستقبال الموت الذى لا مناص منه .

وقال لوبين فى هدوء :   ـ اعطنى مسدسك .

وهز جيم كتفيه وناوله المسدس .

ـ والآن ارفع ياقة جاكتتك حتى تغطى عنقك البيضاء وانطرح على الارض ووجهك الى الجدار . واياك أن تتحرك من مكانك الا اذا سمعت طلقا ناريا . وعند ذلك يمكنك أن تنهض وتركض هاربا الى دارك وقل انك لم تر شيئا ..! وانك لم تسمع سوى الطلقات النارية فاستيقظت من نومك منزعجا ..!   ـ ولكن انت ..؟

ـ لا شأن لك بى الآن ..!

وفك لوبين ازرار قميصه واخرج القناع الاسود من جيبه فى المنطقة المشدودة حول وسطه فثبته الى وجهه ولبس القفاز الاسود فاستحال بذلك شبحا أسود اللون من رأسه الى قدميه . ثم تراجع الى الخلف وانزوى فى ركن من الكهف لا يصل اليه من الضوء الا قبس ضئيل .

وكان وقع الاقدام قد اخذ يعلو ويشتد اذ ذاك . واستطاع لوبين أن يميز بعض كلمات الحديث الذى يدور بين الحارسين .. وكانا يتكلمان عن فتاة تدعى ايما .

واشار لوبين الى ركن مظلم من الكهف فسار اليه جيم وانطرح على الارض ووجهه الى الجدار ملتصقا به كما أمر

لوبين . ولما اطمأن لوبين الى ان مساعده احسن اداء تعلي
انطرح بدوره على الارض ولكنه لم يجعل وجهه الى الج
وانما جعله الى المنحنى الذى سيأتى الحارسان من خل
ووضع المسدس على الارض امامه .

وكان الرجاء ضعيفا فى ان لا يراهما الحارسان . فع
يظهران من وراء المنحنى سيكون بصرهما فى الغالب متجها
الجدار .. اى الى حيث يرقد جيم ولوبين على مسافة عش
باردة . على ان من المحتمل ايضا ان لا يتجاوز بصر
الباردات القليلة الواقعة تحت عيونهما فلا تمتد على
العشرين باردة كلها .. وانه لأمل ضعيف . ولكن لوبين
فى مركز دقيق يحمله على ان يتعلق بأوهى الآمال . على
مع هذا كان متأهبا لأية مفاجأة تحدث .. فهذا هو المس
امامه على الارض فاذا ما فطن الحارسان الى الامر فما
الا ان يطلق عليهما النار . وفى خلال ذلك سيتمكن جي
بلوغ داره .. اما لوبين فسيذهب فريسة البنادق ال
الطلقات قبل ان يتمكن من الفتك بالحارسين . ومع
فحسبه من الامر انه سينقذ حياة جيم وان يرده الى زو
وابنته ولو ضحى فى سبيل ذلك بنفسه .

وصارت اصوات الحارسين اكثر وضوحا . و
حديثهما فى السمع :

ـ اعلم يا جورج انى اعرف عما أتحدث .. نعم . ا
لن تتزوج هارى الاعور .. انها ستتزوج ذلك الشاب ا
يقيم فى شارع ليشستر . انه يدعى بيل فيما اذكر .

فضحك الحارس الثانى ضحكة عالية وقال :

ـ بيل تارلنج ..! انك مغفل يا صديقى ..! ان اي
تتزوج بيل تارلنج ولو نقدها الف جنيه . لقد صارحتنا زوج
بنيتها هذه ..! او هـذا على الاقـل هو ما فهمته زو
من حديثها .   فضحك الحارس الاول وقال :

ـ لقد ارادت اذن ان تضللها عن الحقيقة .. انى واثق من انها ستقترن ببيل .. الم ترهما يتنزهان معا كل يوم تقريبا ؟

ـ واى شيء فى هذا ..؟ كم من فتاة تبيح لرجل ان يقبلها بينما تنوى أن تتزوج سواه .

وتهيأ لوبين للعمل وقد عرف من وضوح الصوت انهما يوشكان ان يظهرا من وراء المنحنى . وان الأمر لا يعدو ثوانى معدودات .

ولكن لوبين اخطأ التقدير . لقد وقف الحارسان وراء المنحنى وقد احتدم بينهما النقاش .

وقال احدهما فى لهجة تنم على الغضب :

ـ قلت لك ان ايما ستتزوج بيل تارلنج ..!

وقال جورج :

ـ وانا اقول لك انها ستتزوج هارى الاعور ..!

ـ انى واثق مما اقول ايها المغفل الغبى ..! ان ايما نفسها هى التى كاشفتنى بنيتها .

ـ حقا ..! وما شأن ايما بك حتى تكاشفك بأسرارها ايها العجوز ؟ هل اصبحت وصيا عليها ..؟

واستمر الرجلان يتجادلان فى الأمر وكل منهما مصر على ان ايما ستتزوج الرجل الذى يذكره . وطال الحوار واشتد .. ولوبين وجيم يصغيان الى هذا الحديث وقد نفد صبرهما .. وكان لوبين يعلم ان الموقف لا يطاق .. بالنسبة الى جيم على الاقل .. وان طول الانتظار امض اعصابه بلا نزاع . فاذا لم يكن بد من الموت فليأت عاجلا بدلا من هذا الارهاق الذى يحطم الاعصاب . وكان اكبر ما تخشاه لوبين ان يفقد جيم الصبر فتبدر منه حركة تفسد الموقف وتكشف امرهما للحارسين .

واشتد الحديث بين الرجلين خمس دقائق . وانتهى الامر بأن عقدا رهانا على جنيهين .. هذا يقول انها ستتزوج بيل

وذاك يقول انها ستتزوج هارى .

ورأى لوبين ظل يدين تتصافحان وتقسمان على الرهان . .
وعلى الاثر بدأ حوار جديد يصحبه وقع اقدام الحارسين وقد واصلا السير .

ولكن الوقع أخذ يخفت . ! لقد ابتعد الحارسان . !

* * *

لم ينتصب لوبين واقفا الا حين لم يعد يسمع صوت الحارسين وهمس ينادى صاحبه . . فتنفس جيم الصعداء وتنهد فى صوت مسموع ونهض بدوره وهو يلعق شفتيه الجافتين .   وتمتم جيم يقول :

ــ شكرا لله . ! لقد حالفنا الحظ . ! لقد ظننت ان الموت لا مفر منه . ! الا شكرا لايما . ! فلولاها لكنا الآن جثتين هامدتين . !

ونزع لوبين قفازه وقناعه ، ووقف ثانية فوق كتفى جيم ومضى يفحص السقف فى المنطقة التى تظل المكان الذى وجد نفسه فيه عند ما استفاق . واخيرا طلب الى صاحبه ان ينزله .

وقال جيم وعيناه تنطقان بالشماتة :

ــ هذا ما كنت اعتقد . ! ان الخروج من هذا السجن الابدى مستحيل . !

ورثى لوبين لحاله ، ولكنه لزم الصمت ولم يقل شيئا . !
وعادا ادراجهما الى البيت .

وكانت سالى فى انتظارهما عند الباب . . وكان وجهها ينم عن الارتياح والرجاء ، وحين راتهما مقبلين تعلقت بذراع زوجها كأنما لاتنوى أن تدعه يقوم بهذه المغامرة مرة اخرى . . وهتفت :

ــ جيم . ! حبيبى جيم . ! لقد كدت افقد الوعى عندما رايت الحارسين يتقدمان الى حيث ذهبتما ، وبت أتوقع ان اسمع دوى الرصاص ما بين لحظة واخرى ، ولكن خبرنى . .

ما الذى حدث . ؟ وكيف نجوتما . ؟

ــ نجونا لانهما لم يتجاوزا المنحنى الاخير . !

ــ شكرا لله . ! وماذا وجدتما . ؟ هل اهتديتما الى المنفذ السرى ، اسرع . . خبرنى . . فان صبرى نفد . !

ولم يجبها زوجها على سؤالها ، فكان لها من صمته ابلغ الجواب ، وهتفت تقول :

ــ اذن فلا مهرب لنا . !   ــ نعم . . لا مهرب . !

وارسل جيم الى سقف الغرفة نظرة جامدة صخرية . .
وهمست المسكينة تقول :

ــ اذن فسنقضى بقية العمر هنا . ! لقد كنت ارجو ان . اوه . ! يا الهى . ! هنا مدى الحياة . ! وانت ايضا يا لوبين . . قضى عليك بأن تعيش معنا حتى الابد . . لا مهرب لنا . !

ولبث لوبين صامتا لا يتكلم . . لم يكن فى وسعه أن يصدق مايرى ، كيف هذا . ؟ اقضى عليه حقا ان يعيش مدى حياته فى هذه الكهوف ؟ افى يقظة هو ام فى حلم . ؟ نعم . . لم يكن هناك شك فى انه انتقل من الدنيا الاخرى الى هذه الكهوف . . هذى سالى وجيم والبيت الخشبى وجدران الكهف . . كل هذا دليل على ان حواسه لا تخدعه . !

ومع ذلك فهو لم يكن يائسا . ! نعم . انه لم يهتد الى المنفذ السرى . . ولم يعثر على الطريق الذى جاء منه الى الكهف . . ولكن هذا ليس معناه انه سيمضى بقية العمر سجينا . ! لابد ان يجد مخرجا . . وكل ما فى الامر أن الاهتداء الى المخرج قد يقتضى بعض الوقت . .

لم تكن هذه اول مرة الفى لوبين نفسه سجينا فى مكان يتعذر ان يخرج منه . ! وكم ظن خصومه انهم ظفروا به فحبسوه فى كهف او قبو ليموت جوعا . . ولكنه استطاع الفرار . . فهل تراه يعجز هذه المرة ؟

وانتبه لوبين من هذه الخواطر فجأة على صوت سالى وهى

وهى تتحدث اليه قائلة :
ــ لماذا تبتسم .؟ كأنى بك قد سمعت نبأ سارا بدلا من هذه الانباء المزعجة التى تبعث اليأس .!
ــ ربما ابتسمت لان الانباء ليست مزعجة الى الحد الذى تتصورين ..! فنظرت اليه فى استغراب وقالت :
ــ أمعنى هذا انك تحب ان تمضى حياتك فى هذا الكهف .؟
ــ كلا بالطبع .. ولكنى افكر فى المثل الذى يقول : « ان هناك الف طريقة وطريقة لقتل الفار » ، وكذلك هناك الف طريقة وطريقة للفرار من هذا الكهف .. الا يحضر الى هــذا الكهف اعضاء جدد من حين لآخر .؟
ــ طبعا .. ــ وكيف يدخلون .؟
ــ هــذا مالا يدريه احد غير اعضــاء مجلس الادارة .. والقادمون الجدد يعطون مخدرا . فاذا ما افاقوا الفوا انفسهم فى الكهف .
ــ ليس هذا ما ارمى اليه .. لقد حدثتنى يا مسز ميلر عن بوابة حديدية وحراس يخفرونها . فهل يأتى القادمون عن طريق هذه البوابة .؟
ــ نعم . يأتون محمولين على محفات يحملها بعض اعضاء مجلس الادارة .
ــ اتظل الابواب دائما مغلقة لا تفتح الا عند قدوم هؤلاء .. هؤلاء المهاجرين .؟
ــ نعم .. وماك بيكلى هو الذى يحتفظ بالمفتاح .
ــ ومن هو ماك بيكلى .؟
ــ انه يسمى نفسه رئيس العصبة السرية . والبوليس يبحث عنه لانه قتل شخصين .
ــ اليس هناك طريق آخر للخروج أوالدخول عدا البوابة .؟
ــ كلا .
ــ وكيف اذن يتجدد هواء الكهف .؟ فانه لايلبث ان يصبح

ساما ان بقى على حاله طويلا دون ان يتجدد .؟
ــ هنالك فجوتان لتجديد الهواء احداهما فى ميدان ويبوث والاخرى فى ميدان هال . والفجوتان متصلتان طبعا بانابيب يسرى فيها الهواء النقى . وعلى فوهة كل من الفجوتين قضبان حديدية سميكة تجعل المرور من بين فرجاتها مستحيلا . فضلا عن ان الحراس يتولون خفارتها اثناء الليل .
ــ واين يقيم هذا الرجل المدعو ماك بيكلى .؟
فقال جيم متسائلا : ــ ولم تسأل .؟
فابتسم لوبين وقال مجيبا :
ــ لانى انوى ان اسطو على داره واسرق المفتاح .!
فقال جيم فى ذعر :
ــ انك لن تفعل هذا يا لوبين .! وان فعلت فلن تفلح .! وان افلحت فلن تجدى عليك سرقة المفتاح شيئا .؟
ــ لمــاذا .؟ فالتفت جيم الى زوجته وقال :
ــ الم تنتبه يا سالى .؟
فاحنت المرأة رأسها وقالت :
ــ لقد انبأته .! اما ذكرت لك يالوبين حكاية جرس الانذار والحراس الذين يخفرون البوابة .؟ لماذا لاتصدقنا عندما نقول لك ان مغادرة هذه الكهوف احد المستحيلات .!
فابتسم لوبين وقال فى هدوء :
ــ لان ارسين لوبين لا يعرف شيئا يسمى المستحيل .! كم عدد اهل الكهف .؟
ــ خمسمائة شخص تقريبا .
ــ متى وصل آخر رهط من القادمين الجدد .؟
ــ منذ ثلاثة أيام .
ــ أيمكننى ان اطوف بالكهف غدا وانا آمن مطمئن .!
ففكر جيم برهة ثم قال :
ــ لا أدرى .! قد يظنك الناس احد الجدد .. ولكن اذا

ارتاب فيك احد الحراس وساقك الى ماك بيكلى ..

وتاوه جيم وقال فى مرارة :

ــ ان بيكلى وحش على صورة انسان .. ان القتل عنده اهون عقاب .

ــ أتعتقد انه سيقتلني اذا كشف امري ؟.

ــ بلا نزاع .. وسيقتلك بمسدسه .!

ــ اذن فالموت هو النهاية المحتومة ان لم تقع معجزة من المعجزات وما دام الامر كذلك فالرأى عندى ان الاستهداف للخطر فى سبيل المفتاح هو خير الحلول .! فقد اظفر بالمفتاح وقد تتم النجاة .!

وقال جيم فى تلعثم :

ــ ولكن ينبغى ان .. ينبغى ان ..

وامسك عن الكلام وادار راسه الى ناحية الجدار فى يأس . وابتسم لوبين . عرف أن جيم اراد ان ينصحه بالحذر ولكن ما جدوى الحذر ما دام لا مفر من الموت ..!

وقال لوبين : ــ انى اريد ان تسدى الى خدمة كبيرة .؟

ــ انى رهن اشارتك ما دام الامر فى وسعى .

ــ اسمح لى بان ابيت الليلة فى دارك .. على هذه الاريكة .

ــ طبعا .. ولكن فى الغد . فقاطعه لوبين فى هدوء :

ــ فى الغد ساكون قد ظفرت بالمفتاح .

وابتسم ابتسامة المطمئن الواثق .

الفصل السادس

نام لوبين نوما عميقا ولم يستيقظ الا حين رأى شبحا يدخل الغرفة والنور الكهربائى يغمر المكان .

وكان جيم بادى الاضطراب وقد لاح عليه انه امضى ليلته ساهرا لا يغمض له جفن .

وقال جيم يخاطب ضيفه : ــ هل نمت جيدا يالوبين .؟

ــ انى لم أستيقظ الا فى هذه اللحظة .

فهز المسكين راسه فى أسى وقال :

ــ انى وسالى لم نذق للنوم طعما .

ــ أكنتما تفكران فى مصيرى ؟

ــ نعم . فلو أن امرك اكتشف لما كان لك رجاء فى النجاة .

ــ ولم تزعجان نفسيكما لاجلى .! اننا لم نتقابل الا منذ بضع ساعات فكرا فى كما تفكران فى سفينة تمر بالميناء مرورا سريعا ثم تتابع رحلتها الى حيث تشاء الاقدار .

فهز جيم راسه وقال :

ــ أتحسب الامر سهلا الى هذا الحد يا لوبين .؟ لا اريد ان اكون رجلا ينساق مع العاطفة . ولكن لك ان تصدقنى اذا قلت ان قدومك الى الكهف كان بمثابة انبثاق قبس من اشعة الشمس فى هذه الظلمات . عندما رايتك خيل الى انى رايت معك الشمس والنور والمطر والحقول الخضراء . انك تعرف اننا نعيش هنا فى عزلة تامة لا اصدقاء لنا وليس بين اهل الكهف من تطيب لنا مصادقته . انهم جميعا من المجرمين المعتادى الاجرام .!

وابتسم لوبين ابتسامة خفيفة فادرك جيم ما يجول فى خاطره وقال معتذرا فى لهجة تدل على الاخلاص :

ــ اننى آسف جدا يا لوبين .! لقد نسيت .! ولكنك لست من طرازهم . انك لست مجرما عائدا من هذا الطراز . وفضلا عن هذا فانا ايضا من الناحية القانونية ينبغى ان اسلك فى عداد المجرمين ولكنى لا اعتبر نفسى مجرما . هناك جرائم يقدم عليها المرء عفوا دون ان تكون نزعات الاجرام كامنة فى نفسه وكذلك كان شأنى . ما اختلست الا طمعا فى الربح . وانت ايضا لا تسرق الا ولعا بالمغامرة ورغبة فى الانتقام من الاغنياء الذين يكنزون المال وينسون الفقراء انك لا تسرق الا لتوزع ما سرقت على المحتاجين والجمعيات الخيرية . فانت عندى صاحب مبدأ ولست لصا .! من هذا تستطيع ان تدرك انى اعف عن مخالطة

اهل الكهف .

وفى هذه اللحظة دخلت سالى ودعت الرجلين لتناول الفطور

ولما دخل لوبين الى الحمام رأى صنبور الماء والى جانبه جهاز كهربائي للتسخين . كما لاحظ ان الحوض متصل بأنبوبة الصرف .

ـ من اين يأتيكم الماء . ؟

ـ من مصنع استخراج الماء بالقرب من النهر .

ـ مصنع استخراج الماء . . ! يا الهى . . ! وهل لديكم ايضا طلمبات لتصريف القاذورات والمياه القذرة . . ؟

ـ نعم . . والقاذورات تفرغ فى النهر . وسترى كل شيء بنفسك عندما اطوف بك الكهوف الآن .

فقال لوبين : تطوف بى . . ! ماذا تعنى . . ؟

ـ اليوم الاحد . . يوم العطلة فى الكهف فليس لدى عمل يشغلنى .

ـ عمل . . ! وهل يشتغل اهل الكهف . . ؟

ـ طبعا . . انهم مرغمون على العمل رضوا ام كرهوا . . وكثيرون من اهل الكهف يمقتون العمل ويؤثرون عليه السجن ولكن لا حيلة لهم فى الامر . . لا مفر عندهم من الاذعان .

ـ وفى اى شيء يشتغلون . . !

ـ لكل منا عمله الخاص . فانا مثلا اشتغل كاتبا فى مكتب الرئيس . . لقد عهدوا الى بان اتولى جمع الايجارات اذ كنت كاتبا فى البنك .

ولما رأى جيم امارات الاستغراب على وجه لوبين ضحك وقال :

ـ اننا ندفع ايجارات عن هذه الدور كاننا نعيش فى الدنيا الاخرى . . !

ـ والى من تدفعونها . ؟ ـ الى اعضاء مجلس الادارة

ـ وهل تتناول اجرا عن عملك . . ؟ ـ نعم

واخرج من جيبه حفنة من النقود ناولها الى لوبين ففحصها [illegible] استغراب فالفاها قطعا نحاسية مختلفة الاحجام . وعلى وجه [illegible]ها نقش معول وسندان حولهما هذه الكلمات :

« مجلس ادارة العصبة السرية » .

وعلى الوجه الآخر رقم ١ او الرقم ٥ او ١٠ او الرقم ١٠٠ [illegible]ب حجم القطعة النقدية .

وقال جيم مستطردا :

ـ القطعة الصغرى التى تمثل وحدة واحدة تسمى بنسا [illegible]ما القطع الاخرى فتسمى على التوالى : خمسة او عشرة او [illegible]ائة . وابلنس من هذه القطع يعادل تقريبا البنس الانجليزى . [illegible]ما الخمسة بنسات من نقود الكهف فتعادل نصف شلن وهكذا .

ـ والمعول والسندان . . ؟

ـ شعار العصبة . . لان شؤون الكهف تدار على اساس [illegible]المبادىء الشيوعية . فكل ذكر تجاوزت سنة الرابعة عشرة [illegible]بد ان يسعى الى العمل . . وجميع الذكور يتناولون اجرا [illegible]احدا اعنى خمسمائة بنس فى الاسبوع . . اما ايجارات المنازل [illegible]تختلف تبعا لمساحتها . وارخص منزل يؤجر بمائة بنس فى [illegible]الاسبوع واكبر الدور ايجارها مائة وخمسة وسبعون بنسا . [illegible]ايجار منزلى هذا مائة وخمسة وعشرون . . والاناث اللائى [illegible]جاوزن الرابعة عشرة مرغمات على العمل ايضا . وتتقاضى [illegible]المراة مائتين وخمسين بنسا فى الاسبوع . والنساء المتزوجات [illegible]يعفين من العمل ولكن يباح لهن ان يعملن داخل مساكنهن [illegible] حساب القطعة ؛ فتنال المراة المتزوجة اجرا يتناسب مع [illegible] الجزء . ولكن محرم عليها مهما كانت الظروف ان تنجز من [illegible]العمل ما يقدر عنه اجر يقل عن الخمسين بنسا . ينبغى ان [illegible]كسب على الاقل خمسين بنسا فى الاسبوع . . ان زوجتى [illegible]تشتغل فى التطريز وهى تربح فى الاسبوع اكثر من مائة بنس .

وقال لوبين يسأله :

ـ والى من تبيع مستر ميلر ما تطرزه . . ؟

ـ الى مجلس الادارة . . لقد اختص المجلس نفسه بحق شراء ما يصنع فى الكهوف . فاذا ما استولوا عليه باعوه فى الدنيا الاخرى ولا شك انهم يربحون عشرات الالوف من الجنيهات . . بل مئات الالوف . . ولا عجب فى هذا . فهم يشترون مايصنع بابخس الاثمان . بنقود من النحاس . من صنع مجلس الادارة نفسه .! اى انهم يتناولونها بالمجان .! والمواد الخام مسروقة فى الغالب . .

فابتسم لوبين وقال :

ـ اذن فالثمن الذى يبيعون به المنتجات فى الدنيا يمكن ان يعد كله ربحا .!

ـ هو ذاك . . انهم يستغلون اهل الكهف استغلالا شنيعا .

* * *

تناول لوبين وجيم وسالى وجراسى الطعام معا . . وقد جهزته ربة الدار على فرن كهربائى ارته لارسين لوبين وهى تقول :

ـ ان الكهرباء هى عماد الحياة فى هذه الكهوف . ! انها الوسيلة الوحيدة للاضاءة والتدفئة . فليس فى الكهف غاز او بترول او قناديل . وليس هناك كبريت ايضا . والمدخنون من الرجال يشعلون سجائرهم بالمشاعل الكهربائية !

ـ خشية النار ؟

ـ نعم . . فلو شب حريق فى الكهوف وبيوتها من خشب لاتى عليها جميعا فى ساعة واحدة . . ولمات اختناقا بالدخان من ينجو من النار .

ولما فرغوا من طعام الفطور حاول لوبين فى غير جدوى ان يثنى جيم عن مرافقته حتى لايرى واسرته فى رفقة رجل تحوم حوله الشبهات تفاديا من انزال الاذى بالاسرة اذا ما اكتشف امر هذا الدخيل . . لكن جيم اصر على الخروج معه قائلا انه

اعتاد ان يتجول فى الكهوف يوم الاحد من كل اسبوع . فضلا عن ان سير لوبين وحده قد يضعه موضعا مريبا . . اما ان يشاهد وفى صحبته شخص معروف فقد انتفت عنه الشكوك !

واذعن لوبين اخيرا امام هذا الاصرار . . فخرجوا جميعا يتجولون ولوبين يرمى من وراء ذلك الى دراسة مواقع الكهوف حتى اذا حانت ساعة الفرار كان على علم تام بالمسالك التى ينبغى ان يتخذها .

ولاحظ لوبين ان الكهوف تمتد عادة على استقامة تامة ثم تتفرع الى كهوف اخرى مستقيمة . وكان مجلس الادارة قد اطلق على هذه الكهوف اسماء بعض الشوارع المعروفة فى لندن وكانت البيوت الخشبية قائمة على جوانب الكهوف واغلبها مماثل لبيت جيم .

ولما بلغوا شارع سوثمبتون راى فيه لوبين نفرا من الناس اغلبهم من النساء وقد جلسن على مقاعد عند الابواب يطرزن او يحكن الثياب وهن يتبادلن الحديث بعضهن مع بعض . . وكان هناك ايضا عدد قليل من الرجال يدخنون فى صمت وكذلك راى طفلين او ثلاثة .

استغرب لوبين ان تنتظم البيوت هذه الشوارع على نقيض شارع بريتون اذ ليس فيه الا بيت واحد هو الذى يقطنه جيم فلما كاشفه باستغرابه قال جيم مفسرا :

ـ هذا مرجعه حظى السعيد . . ان المجرمين العائدين قوم ينفرون من كل من لم يكن على شاكلتهم . فلما تزوجت سالى اتخذت هذا البيت لاقامتنا ، فنفر المجرمون من الحى باكمله ولم يشأ احد منهم ان يبتنى له منزلا هناك . والواقع ان اهل الكهف لا يميلون الى او الى زوجتى . ولولا ان يكلى فى حاجة الى لاننى الوحيد الذى يحذق الحسابات لقضى علينا بالموت منذ امد طويل .

وظلوا يسيرون حتى انتهوا الى كهف كبير لا يقل طوله عن

اربعمائة باردة وقد تفرعت منه ستة كهوف صغيرة بدت
جانبيه كانها البراميل. وقد قامت على جانبي الكهف الكبير
من الخشب شيدت تحتها حوانيت للبيع والشراء .

وفي وسط الكهف راى لوبين ساحة متسعة صفت
المقاعد والموائد وقد انتظم حولها عدد كبير من اهل الكهف
وفوق الموائد اقداح البيرة وزجاجات الخمر . والجرسون
يروحون ويجيئون وقد ارتدوا الازارات البيضاء .

على ان المنظر الذى راقه وفتنه انما كان سقف الكهف
لم يكن السقف منخفضا شأن سقوف اغلب الكهوف الا
وانما كان مرتفعا جدا وقد انتشرت فيه الفجوات والشق
والنتوء . وكانت المصابيح معلقة فى الاجزاء المنخفضة منه
تصل ضوءها الى الاجزاء العليا او الى داخل الشقوق .
السقف مجموعة غريبة من النور والظل .

ــ هذا هو ميدان مانشستر وهو كما ترى سوق البيع
والشراء ولدينا هنا كل نوع من انواع الحوانيت : القص
والخباز والبقال .. الخ .. وجميع البضائع ملك لمجلس
الادارة . اما الباعة فيتناولون اجرا ثابتا .. اتذكر قاتلا
لامبورت يبحث عنه البوليس منذ سنوات لقتله فتاة
بترلجتون ؟ انه هو الذى يتولى ادارة حانة البيرة . ول
ــ على رغم الارباح الجسيمة ــ لا يتقاضى الا الخمسمائة
المعهودة .

ــ ومساعدوه ؟

ــ يتقاضون خمسمائة بنس ايضا .

ــ اذن كيف يبسط عليهم سلطته ما داموا جميعا
متساوين . ؟ هبهم ابوا ان يطيعوا اوامره ؟

ــ لقد احتاط مجلس الادارة لهذا الامر . فالعصيان
عقوبته الغرامة وهى تخصم من الاجور الاسبوعية
تستوفى كلها . فاذا ما توالى العصيان توالت الغرامات فيها

الامر اخيرا الى الموت جوعا ! ولهذا لا يفكر احد فى مخالفة امر يصدر اليه .

فهز لوبين راسه وقال :

ــ هذه حال من الاستبداد لا تطاق !

ــ ليس هناك شيء من الاستبداد فيما اعتقد فقبل ان يقضى بالغرامة يدرس مجلس الادارة الامر ، فان وجد الرئيس محقا حكم على المرؤوس والا صدر الحكم ضد الرئيس ان ظهر ان الامر الذى اصدره كان جائرا .

وكان لوبين يفكر طيلة الوقت فيما ترى عيناه . من يكن ان يصدق ان فى باطن الارض دنيا اخرى شبيهة بالدنيا التى فوق الارض ؟

وتحول لوبين فجاة الى جيم وقال :

ــ خبرنى .. اكنت تعتقد عندما جئت الى هذه الكهوف انك ستمضى فيها بقية العمر ؟

ــ كلا .. لقد افهمونى ــ كما افهموا سواى من اهل الكهف ــ ان الامر لن يعدو شهورا او عاما او عامين حتى اذا هدأت الضجة امكننى ان اعود الى الدنيا . ولكننى ما تجاوزت مدخل الكهف حتى تجلت لى الحقيقة .

ــ اذن لماذا لم يتمرد اهل الكهف .. ؟ لو انهم تآمروا وتعاونوا لامكنهم ان يغتصبوا البوابة .

فهز جيم كتفيه وقال فى تهكم :

ــ اهل الكهف يثورون ويتمردون .. انظر اليهم وتصفح وجوههم .. انهم راضون عن حياتهم قانعون بها . واغلبهم ينعمون فى الكهوف بحياة اطيب عندهم من حياتهم خارج الكهوف .. ان الخمسمائة بنس الاسبوعية تسد حاجاتهم وتغنيهم عن الاستهداف لاخطار اللصوصية .. وهم قوم لا يحفلون بالشمس او النور فما الذى يضيرهم ان بقوا هنا مدى الحياة .

وادار لوبين بصره فى اهل الكهف المتظمين حول الموائد ..
نعم .. لقد صدق جيم .. انهم جميعا راضون قانعون ..
اغلبهم من مهربى المخدرات او القتلة او مدمنى الخمر .. فهل
يسوءهم ان يحرموا من نور الشمس ؟

واسترسل جيم يقول :

ـ ومع ذلك فاغتصاب البوابة مستحيل حتى ولو ثار اهل
الكهف . ان الحراس جميعا يختارون من القتلة الذين يبحث
عنهم البوليس وليس من مصلحة هؤلاء القتلة ان ينكشف امر
الكهف ويهرب رجال العصبة السرية . والا سعى البوليس
اليهم وارسلهم الى المشنقة فهم ناجون سالمون ما دام الكهف
سرا من الاسرار . ولهذا تراهم اشد الناس حرصا على عدم
السماح لاحد بالفرار .

واخذوا ينتقلون من شارع الى شارع وكان بعض الناس
ينظرون الى لوبين فى استغراب وقد تبينوا من وجهه انه حديث
عهد بالكهف اذ لم يؤثر فى لون بشرته بعد الحرمان من نور
الشمس .

وانتهى بهم المطاف اخيرا الى كهف كبير ذى ساحة متسعة
فقال جيم :

ـ هذا هو ميدان هال .. انظر الى الاعلى الى يمينك تر
فوهة الانبوبة المجددة للهواء .

وكان قطر الفوهة لا يقل عن خمس عشرة قدما وكانت
ـ كما قال جيم ـ مزودة بقضبان من الحديد تبدها حتى
يستحيل الفرار منها . وكان نشر هذه القضبان مستحيلا .
فهو اولا يستغرق وقتا طويلا . بضع ساعات فضلا عن ان
حركة المرور لا تهدا فى هذا الميدان فلا سبيل الى نشر
القضبان والا استهدف المرء لانكشاف امره .

وكانت الانبوبة مظلمة لا يشع منها قبس من ضوء النهار
فرجح لوبين انها ملتوية ذات انحناءات متعددة لا تسمح لضوء

النهار الخارجى بالانعكاس الى الداخل .

وكان التيار الهوائى المنبعث من الانبوبة قويا شديدا
يكاد يطير ثياب سالى وابنتها .

وانتهوا الى ميدان اخر نعته جيم باسم ميدان لندن وقال
وهو يشير الى بيت كبير :

ـ وهذه هى مكاتب موظفى الرئاسة . انى اشتغل هنا .
اما البيوت الصغيرة المنتشرة حول الميدان فهى بيوت الحراس
وهذا هو نهر استيكس . نهر الموت كما يسمونه وان كان فى
الواقع نهر الحياة بالنسبة الى اهل الكهف فالذين يقذفون
بانفسهم فيه يرون فى الموت حياة جديدة .

وارسل لوبين بصره الى حيث اشار جيم فرأى نهرا صغيرا
تتصل بطرفيه ماسورتان تغيبان فى باطن الصخور احداهما
الى يمين الميدان والاخرى الى يساره .

الفصل السابع

كان للنهر منظر بشع يبعث الرعب فى القلوب .. لم يكن
هناك ضوء ينعكس على سطحه فبدا مظلما قاتما فحق عليه
اسمه : نهر الموت ..!   وتمتم جيم يقول :

ـ يمكننا ان نسير هنا دون ان نسترعى الانظار . ولكن
لا تطيل النظر يالوبين الى اية جهة . تظاهر بانك منهمك فى
الحديث .. الى يمينك مصنع المياه .. والالات التى تسمع
دويها انما هى الطلمبات التى تجذب المياه من النهر وتفرغها
فى حوض كبير نحت فى الصخر فوق رؤوسنا . لا تنظر الى
الاعلى فهناك حارس يحدق فينا النظر .. الحارس الواقف
بالقرب من باب الرئيس .. انه لا يرتاب فى شىء طبعا لانه
يعرفنى حق المعرفة .. ولكن من يدرى ..!

ومرة اخرى شعر لوبين بالندم على اشراكه جيم معه
وتعريضه واسرته لخطر كان ينبغى ان يكونوا بمنجاة منه .

واسترسل جيم يقول :

— وخزان المياه متصل بانابيب تمتد حتى الدور المنتشرة في ارجاء الكهوف .

— وهل يرشح الماء اولا ..

— كلا .. فان مياه النهر في طريقها الى الكهوف تمر بطبقة معينة من الارض تحتوي على مواد مطهرة تؤدي الى تنقيتها وتطهيرها ولهذا تجد للماء طعما معدنيا قد لا يستطيبه المرء في اول الامر .

وكانت هناك قنطرة فوق النهر اقيم عندها سياج مرتفع يحول دون وصول الناس الى القنطرة فلا يملك المرء الا ان يكون منها على مسافة خمس اقدام . ولاحظ لوبين ان هناك سياجا آخر يمتد من القنطرة الى الماء ويغوص تحت الماء . فلما تساءل عن السبب في هذا اجابه جيم بقوله :

— المفروض ان النهر بعد ان يجري طويلا في باطن الارض يظهر ثانية على سطحها وقد سمعت ان لاحد اعضاء مجلس الادارة بيتا واراضي شاسعة تقع فيها فوهة النهر عندما يغيب في الارض . ومجلس الادارة يتخذ من هذا النهر وسيلة للنقل لا تكلفهم شيئا وذلك ان التيار منحدر وسريع في اكثر الاحيان ولذلك يأتون بقرارات من الجلد يملأون نصفها بمختلف البضائع والمواد ثم يلقون بها الى النهر فيسوقها التيار معه حتى اذا وصلت الى هذا السياج الذي تراه يغوص في الماء حجزها وردها فيخرجها الحراس ويفتحون افواهها المعدنية وينقلون ما فيها من مواد .

وهتف جيم يقول :

— انظر ..! هذه شحنة من الخشب جاءت يحملها التيار ..!

ونظر لوبين فرأى لوحا من الخشب يبرز من فوهة النهر وهو ينبثق من باطن الارض ، حتى اذا انتهى اللوح الى السياج الحديدي رده عن متابعة الانزلاق مع التيار .

وقال جيم :

— تعال بنا نتفرج فان هذه تسلية مباحة لاهل الكهف ، وهناك كثيرون مثلنا يتفرجون .

وكان هناك ستة رجال عند شاطىء النهر ، على راسهم حارس مدجج بالسلاح ، وقد تولى احدهم تحريك اللوح بقضيب من الخشب حتى ادناه من الشاطىء ، فحمله احد الرجال ووضعه على الارض . وكذلك فعلوا ببقية الالواح التي حملها النهر .

وبعد دقائق ظهرت احدى القرارات التي تحدث عنها جيم كانت مستديرة كالكرة تعلوها فوهة من المعدن ، وبعد برهة ظهرت قرارة اخرى على مثالها ولكنها كانت صغيرة الحجم جدا ، وتختلف عن القرارة الكبيرة في انها مطلية باللون الاحمر .

وهتف جيم :

— انظر .. سترى الآن امرا عجبا ..!

وما فرغ من هذه الكلمات حتى اخرج الحارس الواقف عند القنطرة صفارته ونفخ فيها ، فسمع لوبين صفيرا يجاوبه من ورائه ، ثم برز على الاثر حارسان مسلحان خرجا من دار الرئاسة وسارا الى باب السياج القائم عند القنطرة ، ففتحه احدهما بالمفتاح ووقفا فوق القنطرة حتى اذا وصلت القرارة الصغيرة الى السياج رفعها الرجل الى الشاطىء فتلقفها الحارس وسار بها الى دار الرئيس بخفره الحارسان المسلحان .

وقال جيم :

— القرارة الصغيرة الحمراء تحتوي جواهر مسروقة ، ولا يسمح لاحد غير الحرس بحمل هذه القرارات فيحملونها على الفور الى دار الرئيس حيث تودع خزانة متينة تظل فيها الى ان يحين اوان تغيير شكلها وارسالها الى مصنع الحلي فتنزع الجواهر وتركب على حلى اخرى ثم تعاد ثانية الى الدنيا .

– وهذه الحراسة المشددة خشية ان يسرق اهل الكهف الجواهر ..؟

– نعم .. وان كان لا داعي للتفكير في سرقتها ما دمنا نعتقد جميعا ان بقاءنا في هذه الكهوف سيمتد حتى الموت .

ومضوا بعد ذلك الى ميدان لندن حيث يقع مخرج النهر اذ يغيب ثانية في باطن الارض . واشار جيم الى ماسورة كبيرة متصلة بمخرج النهر وقال :

– وهذه الماسورة هي ماسورة تصريف القاذورات .

– والى اين يمتد النهر بعد خروجه من الكهف ..؟

– لا ادرى ..! من المحتمل جدا انه سيظل يجرى في باطن الارض حتى يصب مياهه في البحر .

وانتقلوا الى شارع ليدز فقال جيم :

– وهذا الشارع متصل بميدان برمنجهام الذى يعد في نظر اعضاء مجلس الادارة اهم هذه الكهوف اذ شيدت فيه المصانع المختلفة . ولست تسمع الآن دويا لان الاحد هو يوم العطلة .

– ومن اين تتزودون بالتيار الكهربائي ..؟

– من مصنع في ميدان برمنجهام سأريه لك الآن .

ولاحظ لوبين ان جميع الدور والمصانع مشيدة بحيث لا يكون هناك فراغ بين جدران الكهف والجزء الخلفي من البيوت . وقال جيم يشرح الامر :

– هذا احتياط لابد منه . فلو ان خلف الدور فراغا لاستطاع أهل الكهف أن ينتقلوا في هذا الفراغ خفية دون ان يراهم الحراس . اما الآن وقد انعدم هذا الفراغ فلا مفر لهم من السير في الطرقات . وقد جعلت الشوارع كما رأيت مستقيمة ومتصلة بالميادين اتصالا رأسيا . وبذلك يستطيع الحارس وهو واقف وسط اي ميدان ان يشرف اشرافا دقيقا على جميع الشوارع المتصلة بهذا الميدان . فاذا حاول احد

الاختباء فلابد له ان يختبىء داخل احد المنازل لا خلفها ..!

ولعلك قد ادركت الآن ان وصولك الى دار الرئاسة لسرقة المفتاح شبه مستحيل ..!

وللمرة الاولى شعر لوبين بان الطريق محفوف بالمصاعب وان العقبات ليست هينة كما كان يتصور . ولكنه مع ذلك كان موقنا من انه سيهتدى حتما الى وسيلة يصل بها الى الاستيلاء على المفتاح . فكم من مرة استطاع ان يسرق على رغم الحراس القائمين والرقابة المفروضة . فهل ترى ينجح هذه المرة ام يخفق ..؟

نعم .. للمرة الاولى اخذ يسائل نفسه عما اذا كان الفشل قد كتب له على يد العصبة السرية ..؟ ما حيلته امام دور ليس خلفها فراغ يختبىء فيه المرء ..؟ ما حيلته امام شوارع تظل مضاءة طول الليل ..؟ ما حيلته امام حراس يمكنهم ان يراقبوا جميع الشوارع المتصلة بميدان ما اذا ما وقفوا في هذا الميدان ..! واخيرا ما حيلته امام البنادق السريعة الطلقات التى يتسلح بها الحراس ..؟

واسترسل جيم يقول :

– وهذا البناء الكبير الذى تراه امامك هو مصنع الجواهر .. وفيه انفس الماسات التى اختفت من العالم . فمنذ اسبوع وصلت الى المصنع القلادة الفريدة التى تملكها او كانت تملكها الليدى آتنج وبعد ذلك بيوم او يومين وصلت جواهر جرنجوف الشهيرة . اما المنزل المجاور له فهو مصنع تزييف النقود الذى يغرق الاسواق بالعملة الاجنبية المزيفة . والى جانبه دار الطبع حيث تطبع الصور والكتب المنافية للآداب وتباع سرا في جميع انحاء العالم .

واسترسل جيم وقد اشتدت نبرات صوته :

– قلب بصرك في جميع هذه الدور .. انها موطن الرذيلة والآثام ، والمجرم اذا امن هجمات البوليس ارتد شرا لا يطاق

ولم تقف جرائمه عند حد . فهنا موطن الرذيلة التى تكـ
تفرق العالم وتكتسحه اكتساحا . !

وكانت نبرات صوته قد اشتدت وارتفعت الى درجـ
استرعت إبصار المارة من أهل الكهف فقالت زوجته تحذره
ـ صه يا جيم .. فان الناس يحدجونك بإبصارهم .
ـ هذا صحيح .. انى لاأرى هذا الكهف .. معقل الاجر
الا فقدت السيطرة على أعصابى . والآن فى وسعنا ان نعود الى
الدار على ان نتم طوافنا بعد الظهر بعد ان نفرغ من تناو
الغذاء .

❊ ❊ ❊

وكان الطعام شهيا طاب لارسين لوبين . وقد امضـ
جلوسا الى المائدة ساعة كاملة يتنادرون بالحكايات والنكا
وضحكاتهم لاتكاد تسكن لحظة . على ان الشيء الذى كان لاتز
يزعج لوبين وينغص عليه هدوءه انما كان عجزه عن الشعو
بحقيقة الوقت .. كيف يستطيع ان يصدق ان الوقت قـ
تجاوز الظهر بساعة او ساعتين على ان الانوار الكهربائية لاتزال
تضيء الكهف وتغمره بالضوء ! ؟

ولما فرغوا من الطعام مضت سالى وابنتها الى المطبـ
تغسلان الصحاف . فالتفت جيم الى لوبين وقال وقد سرى
الارتباك الى حديثه :

ـ يجب ان تمضى سحابة هذا النهار معنا يا لوبين . ولكـ
ان تبيت عندنا كما بت فى الليلة الماضية . اما فى الغد ..
وسكت .. ثم استرسل يقول فى يأس :

ـ يعلم الله ما سوف يصير الى امرك فى الغد .. ! لو انى
كنت على شيء من الشجاعة لسألتك ان تقيم معنا باستمرار .
ولكنى افكر فى سالى وجراسى واخشى ان ينكشف امرك
فيلحقهما الاذى بسبب وجودك معنا . ولذلك اخشى ان لا يكون
فى وسعى ان استضيفك اكثر من الليلة .. انك تعلم مبلغ
شقائى اذ ارانى مضطرا الى ان أصارحك بهذا .. ان عنوان كل

نزيل جديد يسجل فى سجل خاص مودع فى مكتب الرئاسة
فاذا عرفوا انك تقيم هنا دون ان يدون اسمك فى السجل
وقعت النكبة .

وقال لوبين :

ـ انى أعرف يا جيم انى مدين لك بحياتى ، فاذا اذنت لى
ان ابيت الليلة فى دارك كان هذا منك فضلا عظيما .. وليس
فى نيتى ان اقيم هنا اكثر من هذه الليلة .. انك تعلم انى ..
فقال جيم مقاطعا :

ـ المفتاح .. أتعتقد انك ستنجح .. ؟
فقال لوبين فى صوت هادىء :

ـ نعم .. لابد لى ان اسرق المفتاح .. ومن اجل هذا
طلبت منك ان تطوف بى ارجاء الكهف حتى اكون على بينة من
مسالكه .

ـ اما زلت مصرا على القيام بهذه المحاولة المستحيلة .. ؟
الا تعلم ان الحراس سيغرقونك بسيل من الرصاص قبل ان
تقطع نصف الطريق الى دار الرئيس .. !

ـ وهبهم اكتشفوا ان اسمى غير مدون فى السجل فماذا
يمكن ان يكون مصيرى .. ؟ ـ الموت طبعا .

ـ اذن ما دام الموت هو المصير فى الحالتين . فمن الخير
اذن ان اسعى الى سرقة المفتاح اذ قد انجح .. لست اجهل
انها محاولة محفوفة بأشد المخاطر ولكنها قد تسفر عن النجاح .
وحتى يعرضنى الى فشلت فلن اخسر شيئا مادام الموت هو المصير
النهائى . وأنا بعد رجل لا تطيب له الحياة الا اذا حفلت
بالمغامرات .. المغامرات الشائكة .. !

ونطق لوبين بهذه الكلمات فى صوت هادىء ولكنه ينم عن
الصلابة وقوة العزم . وارسل جيم بصره الى لوبين وجعل
يتفرس فيه .. وللمرة الاولى ادرك ان لوبين هو الرجل الوحيد
الذى يستطيع ان يجد وسيلة للفرار من الكهف .. ! اذا .. اذا
قدر له ان يعيش .. !!

الفصل الثامن

فى تمام الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثانية والثلاثين مر حارسان ببيت جيم ميلر فى طريقهما الى نهاية الكهف .. وبعد ثلاث دقائق مرا ثانية راجعين الى حيث جاءا . وما كادا يختفيان خلف المنعطف الثانى حتى فتح لوبين باب البيت وتسلل الى الطريق .

وكان مرتديا ثياب العمل السوداء وعلى وجهه القناع وفى يديه القفاز حتى ليبدو شبحا من الاشباح .

وتحول الى جيم ميلر الذى كان واقفا على عتبة الدار يرقبه وقال :

– انى ذاهب الآن . !

ومد اليه جيم يده يصافحه فى حرارة وهو يقول :

– وداعا يا لوبين .. وأرجو لك التوفيق .!

– اذا حالفنى الحظ فلن يكون الامر بيننا وداعا .. لانى لن اغادر هذه الكهوف وحدى .

وكانت سالى واقفة تستمع الى هذا الحديث فهتفت :

– اوه .. ! شكرا لك . !

واقتربت من لوبين ورفعت وجهها اليه وقبلت جبينه فى انفعال وهى تقول :

– ارجو لك حظا سعيدا .. وليحفظك الله . !

وقال لوبين يخاطب جيم :

– لا تنس الحكاية التى لفقناها اذا انكشف امرى فلا تعترف بشىء .. ابق بعيدا عن الحادث !

وسار لوبين مسرعا حتى انتهى الى اول انحناء فى طريقه وقبل ان يتوارى خلفه رفع يده يلوح بها تحية لسالى وزوجها اذ كان يعلم انهما واقفان عند الباب يرقبانه .

وفى تلك اللحظة سمع صوتا شبيها بتنهدة داوية .. او شهيق مرتفع فرجح ان يكون هذا الصوت ناشئا عن التيار

الهوائى المنبعث من فوهة انبوبة التهوية . وانه لم يسمعه اثناء النهار لان اصوات الناس طغت عليه .

وسار لوبين فى طريقه وميدان مانشستر منكشف أمام بصره دون ان يلقى فى طريقه اية عقبة او يسمع صوتا يثير ريبته .

وكان فى نيته ان يتجه الى ميدان مانشستر عن طريق شارع سوثمبتون او شارع اكستر . ولم يكن يجهل ان هذه المرحلة من اخطر مراحل رحلته فالطريق مكشوف خلفه وامامه وليس فى وسعه ان يجد ركنا صغيرا يختبىء فيه الا اذا وصل الى الميدان فلو ان احد الحراس خرج الى شارع برتون اما من ميدان او شارع سوثمبتون لرآه بكل تاكيد ولاستحال عليه حتى ان يرجع ادراجه .

فلم يكن له مفرا ازاء هذا من الجرى ، فما كان منه الا ان انطلق بملء سرعته حتى اذا بلغ الميدان وقف واصاخ السمع .

وسمع اصواتا ولكنها لم تكن قريبة منذرة بالخطر . ولاح له انها صادرة من ميدان مانشستر لا من ميدان سوثمبتون . فارسل بصره الى وراء المنعطف الى الطريق الواقع الى يمينه . وكانت البيوت قائمة على الجانبين كان يتوقع أن يرى فيه نفرا من الناس يروحون ويغدون مادام الليل لم ينتصف بعد ولكنه القاه خاليا من المارة وان بدت بعض النوافذ مضيئة .

وسار لوبين فى حذر وقد ثنى جسمه ومال الى الارض حتى يتفادى الانوار المنبعثة من بعض النوافذ حتى اذا بلغ البيت الاول سار لصقه وعيناه مرسلتان فيما حوله خشية ان يقع عليه بصر احد الحراس وجاوز لوبين البيت الاول وانتهى الى الثانى . واذا كان قد تمنى ان يجد مخبأ فى الفراغ الواقع بين المنزلين فقد خاب ما يرجو . لقد حرص المهندس الذى قام بتشييد منازل الكهف على ان لا يجعل فيها مكانا يمكن ان يتخذ ملاذا . فعلى راس كل فراغ بين منزلين وضع مصباح

كهربائي قوى يبدد الظلمات التى كان ينوى لوبين ان يتستر بها . كما أن الجزء الخلفى من البيوت كان اصق جدرا الكهوف فلا مخبأ هناك ايضا .

وظل لوبين يتقدم من بيت الى بيت والحظ حليفه حتى صار من شارع اكستر على مسافة ستة بيوت . واذ ذاك سمع وقع اقدام مصحوبة بجلبة حديث .

وادرك لوبين من ارتفاع وقع الاقدام ان الحراس يقتربون منه . ولكنه لم يكن يدرى اذا كانوا قادمين الى شارع اكستر او سينعطفون الى شارع سوتمبتون . فلو انه عرف هذا لاستطاع ان يمضى الى الشارع الذى لن يسيروا فيه . على ان الامر الذى لم يكن فيه شك هو انهم لامفر راجعون الى شارع سوتمبتون حتى ولو ساروا فى شارع اكستر لانه مسدود كشارع برنتون .

على انه كان قد تأهب لمثل هذه المواقف اثناء النهار وهو يطوف الكهوف لقد لاحظ انه بالقرب من مؤخرة كل بيت برميل تودع فيه القاذورات فاسرع لوبين الى البرميل وارتقاه حتى اذا بلغ سطح البيت تعلق بحافته ورفع جسمه الى الاعلى وانبطح فوق السطح .

واخذ وقع الاقدام يشتد ثم بدأ يخف تدريجيا فادرك انهم ساروا فى شارع اكستر . ولكنه لبث مكانه ينتظر عودتهم . وبعد قليل سمع وقع خطواتهم مرة اخرى وهم يقتربون واذ ذاك دوت الصفارة ايذانا بان الليل قد انتصف .

وظهر الحراس فى شارع سوتمبتون وكانت اصوات حديثهم جلية مسموعة وايقن لوبين انهم منه على قيد خطوات قليلة فلو ان احدهم رفع رأسه قليلا لرآه وهو منبطح فوق السطح ولافرغ فى جسده رصاص بندقيته .

ولكن اللحظة الحرجة انقضت فى سلام . وتابع الحراس طريقهم على ان هذه لم تكن اول عقبة ينتظر ان يلقاها فى

طريقه فالكهف غاص بالحراس وكلهم مدججون بالسلاح .

ولما خفت وقع الاقدام وثب لوبين الى الارض . ومضى متجها الى ميدان مانشستر حتى اذا بلغ اوله وقف مكانه يفكر فى الطريق الذى ينبغى ان يتبع .. ان الغاية التى يرمى اليها تحتم عليه ان يسير فى شارع جلاسجو . ولابد لتحقيق ذلك من عبور الميدان . وعبوره ليس بالامر الهين .

ارهف لوبين اذنيه للسمع فالفى السكون شاملا . فاطمأن قليلا واتجه الى الميدان . وفى نيته ان يعبره . وكان الميدان فعلا خاليا من الحراس فاسرع لوبين الى الفراغ القائم بين حانوتين واختفى فيه .

وظل ينتقل بهذه الطريقة من حانوت الى حانوت حتى انتهى الى ساحة صغيرة يتفرع منها شارع جديد . ولم يكن هناك سبيل لاجتياز هذه الساحة المكشوفة الا ركضا .

ولم يتردد لوبين فى اتباع هذه الوسيلة فجرى مسرعا .

وفى هذه اللحظة برز حارسان الى الميدان من احدى الشوارع الواقعة فى اقصى الميدان .. !

* * *

لم يكن هناك مجال للتراجع والتقهقر .. ! لم يكن هناك مفر من الاستمرار ومواصلة الجرى .. لو انه تراجع لرآه الحارسان .. ولو استمر فى طريقه لرآياه ايضا .. فالاستمرار اذن أولى به .. !

وقعت المعجزة التى كان يرجوها ولم يره الحارسان .. !

فعندما برز الحارسان الى الميدان لم يكونا فى مواجهة لوبين وانما كانا الى يمينه . فلم يقع بصرهما عليه وقوعا مباشرا . وكف احدهما عن السير وقال لصاحبه :

ـ ما هذا .. ؟ ـ ماذا تقصد .. ؟

ـ لقد خيل الى انى رايت من جانب عينى شيئا يتحرك . الم تر انت شيئا .. !

— لو ان الامور ظلت على هذا النحو لاستطعت ان ابلغ دار بيكلي دون ان يراني هذا الحارس .

وجعل يفكر في خير وسيلة يمكنه ان يتبعها .. وفجاة ومض ذهنه بخاطر فجائي .. واخذ يدرس هذه الخطة الطارئة .. هل يقدر لها النجاح او الفشل ؟

واخيرا عول على تنفيذها ! التقط من الارض حجرا تركه العمال الذين كانوا يتولون تمهيد سقف الكهف وسدده الى نافذة بيت من بيوت الحراس الواقعة في الطرف المقابل من الميدان .

واخطا لوبين الهدف فلم يصب النافذة المنشودة ولكنه اصاب النافذة المجاورة لها .

وعكر صفو الليل صوت الزجاج وهو يتهشم .

وانتبه الحارس مذعورا على الصوت فرمى بصحيفته الى الارض وجعل يحملق في النافذة المهشمة .

واغتنم لوبين هذه الفرصة فجرى مسرعا عبر الميدان الى الناحية التي يقع فيها بيت بيكلي وكان مطمئنا الى ان الحارس لن يراه لانه مازال يحملق في النافذة وقد اختار لوبين نافذة اذا ادار اليها الحارس راسه لم يره .

وما كاد لوبين ينتهي من عبور الميدان حتى برز وجه غاضب من النافذة المهشمة وصاح بالحارس :

— تبا لك ! هل علمتك امك ان تتسلى بتحطيم النوافذ ؟

فصاح الحارس مجيبا :

— اتسلى . ! انى كنت اسائل نفسى عمن هشمها !

فقال الحارس صاحب الدار :

— حقا .. انك انت الذى قذفتها بحجر ايها الشيطان .

واخذ الحارسان يتصايحان ويتشاتمان . وهذا يتنصل مما حدث وذاك يعزو اليه الامر . وفتحت نوافذ اخرى مطلة على الميدان وبرزت منها رؤوس حراس آخرين جعلوا يشهدون

المعركة في ابتهاج ..

وفجاة فتحت نافذة في بيت الرئاسة اطل منها بيكلي وصاح غاضبا :

— ما هذه الجلبة ايها الاحمقان ؟ اصمتا والا قطعت السنتكما !

فقال احدهما :

— لقد رمى نافذتي بحجر فهشم زجاجها !

وقال الآخر :

— انه كذاب مدع ! انى لم اهشم نافذته !

فصاح بيكلي :

— قلت لكما اخرسا !

وانسحب من النافذة ..

وصمت الحارسان وجعلا يتبادلان نظرات غاضبة ساخطة وكل منهما يتمنى لو انقض على صاحبه يفترسه .

وبعد لحظات بدات النوافذ المطلة على الميدان تغلق ، وانطفات انوار الدور ، وانسحب الحارس الغاضب على حين ارتد الحارس المتهم الى مقعده عند باب الرئيس وقد نشر صحيفته بين يديه ومضى يطالعها من جديد .

اما ارسين لوبين فكان في تلك اللحظة مختفيا تحت اريكة في بهو الرئاسة مترقبا ان تحين ساعة العمل .

الفصل التاسع

لبث لوبين في مخباه نحو ساعة منتظرا ان يستغرق بيكلي في النوم من جديد .. وكان في خلال ذلك يفكر في هذا الموقف العجيب الذي القى نفسه فيه .. ارسين لوبين سجين في كهف العصبة السرية .. والى الابد .

ارسين لوبين الذي قام بمغامرات هائلة تنادر الناس بانبائها لكي يسرق سندات تقدر بمئات الالوف . او مجموعات نادرة من الجواهر . ارسين لوبين هذا يقوم اليوم بمغامرة

لكى يسرق مفتاحا !

ومن اجل من يقوم لوبين بهذه المغامرة ؟ من اجل نفسه . انه لا يعتقد ذلك ! انه ما اقدم على هذه المغامرة المحفوفة بالموت الا لكى ينقذ سالى وجراسى وجيم .. نعم .. لقد شعر بعطف على هؤلاء الثلاثة الاطهار الذين سيقوا الى الكهف على غير ارادتهم وهم يكادون ان يكونوا ابرياء لا يعرفون الاجرام .. وما اجرموا فى اول حياتهم الا انسياقا وراء نزعات طارئة . واستجابة لظروف قاهرة .

وفجأة شعر لوبين بالخوف .. الخوف من اى شىء ! هذا مالم يكن يدريه .. ربما الخوف من الموت .. ولكن عهده بنفسه انه شجاع لا يقبل الردى . وكم من مرة لقى فيها الموت ماثلا امام عينيه ومع ذلك ظل على شجاعته لا يحجم ولا يتردد ، ولا يخالجه اى شعور من هذا النوع . ووقع فى روعه ان لهواء الكهوف اثرا فى هذا الشعور الذى داخله ، اذ لاشك ان هواءها ثقيل تنقبض له الانفاس فتشيع فى الصدور روح من التشاؤم .

وانتقل بخواطره الى ناحية اخرى .. ترى ماذا يكون من شأن سالى وزوجها اذا ما نجح لوبين فى مهمته وانتقلوا الى الدنيا الاخرى ؟ لقد مرت به ثلاث عشرة سنة لم يروا فيها هذه الدنيا وما طرأ عليها من تحول عجيب .. وتلك الاختراعات الغريبة التى وصل اليها الذهن البشرى والتى كانت فيما مضى ادنى الى ان تكون حلما من الاحلام ! ما عسى يقولون فى هذا كله ؟ وهل يؤثر الضوء على عيونهم وهم الذين عاشوا طيلة تلك السنوات كلها فى ضوء صناعى ؟ الا يجوز ان تتأثر عيونهم بنور الشمس فيصيبهم العمى . وبذلك يكونون قد كسبوا الحرية بلا اى جدوى ! انهم يتلهفون الى ان يروا الشمس والحقول الخضراء والنجوم . فهل قدر عليهم ان لا يروها حتى ولو خرجوا من هذه الكهوف ؟ اليس

من الخير ان يظل المرء فى هذه الكهوف مدى الحياة على ان يفقد بصره ؟

وفى هذه الخواطر وامثالها تتابعت الساعة التى امضاها لوبين تحت الاريكة .

واخيرا حين اطمأن الى ان السكون قد شمل البيت مرة اخرى تسلل من تحتها فى حرص وحذر .

وكانت الغرفة غارقة فى الظلام لولا هذا الشعاع الخفيف الذى ينبعث اليها من مصابيح الطريق . وارسل لوبين فى الغرفة خيطا رفيعا من مصباحه الكهربائى فتبين مواضع الاثاث ومواقعه .. ثم ادار الضوء على الجدران وعينه الفاحصة ترقب المكان جيدا فوقع فى روعه ان هذا البهو لايمكن ان يكون مخبأ للمفتاح الذى يسعى اليه . ولا ريب ان له مكانا آخر يودع فيه .

واطفأ لوبين مصباحه الكهربائى واتجه الى الباب فاصاخ السمع برهة فاذا السكون شامل لا يسمع فيه المرء شيئا فوضع يده على المقبض واداره .

ولما صار فى الغرفة المجاورة اضاء مصباحه كما فعل وهو فى البهو . ورأى فى هذه الغرفة بابين فاقترب من احدهما والصق اذنه به منصتا فلم يسمع شيئا .. حتى ولا صوت النفس فادار المقبض ودخل .

وظل لوبين يدور من غرفة الى اخرى وهو يدرس موقعها وما فيها من اثاث ويتساءل عما اذا كانت هذه الغرفة تصلح مخبأ لمفتاح البوابة ؟

وانتهى به المطاف اخيرا الى غرفة رأى فى صدرها مكتبا وفى ركن منها خزانة كبيرة غائرة فى الجدار الصخرى .

وطاب لوبين نفسا حين وقع بصره على هذه الخزانة .. لا ريب ان مفتاح البوابة مودع فيها .. فهل يستطيع ان يفتصب هذه الخزانة دون ان يشعر به احد من اهل الدار ؟

لم تكن هذه اول مرة اغتصب فيها لوبين احدى الخزانات ولكنها كانت اول مرة اغتصب فيها خزانة دون ان يستعين بجميع الادوات التى قد يحتاج اليها .. نعم .. ان حول وسطه حزاما يخبيء فيه ادوات اللصوصية ولكن ليس فى هذا الحزام الادوات الدقيقة التى قد يدعو الامر الى استعمالها فى اغتصاب خزانة من طراز حديث .

واقترب لوبين من الخزانة ومضى يفحصها واطمأن بالا حين رأى انها من طراز عتيق ليس من العسير تحطيمه فضلا عن ان الاقراص الدائرة المشدودة بها من ذلك الطراز ذى الصوت الواضح الجلى فلو انه ادار الاحرف المختلفة لاستطاع بسهولة ان يميز الحروف التى اختيرت لتكوين الكلمة السرية

على ان الامر الذى سره حقا هو انه سيكون فى وسعه ان يغتصب هذه الخزانة دون ان يدع عليها من الخارج اثرا يدل على انها فتحت . فلن يكون اذن فى حاجة الى تحطيمها او تهشيم قفلها .

ووضع لوبين مصباحه الكهربائى على احد المقاعد بحيث يسلط اشعته على اقراص الخزانة . واسدل الستائر حتى لا ينبعث منها ضوء الى الخارج يكشف عن وجوده . ثم جثا امام الخزانة وشرع يعالج القرص .

اخذ يدير الاحرف واحدا بعد الاخر وهو يرهف اذنيه للسمع ..

وكانت تكات الاحرف الاولى عادية طبيعية .. ثم سمع تكة طويلة عميقة الاثر عرف منها ان هذا الحرف احد حروف الكلمة السرية ولهذا دار طويلا قبل ان يستقر فى موضعه .

وبهذه الطريقة استطاع لوبين بعد اكثر من ساعة ان يتبين جميع حروف الكلمة السرية وكان من أهون الامور بعد ذلك ان يؤلف الكلمة من هذه الحروف .

وادار لوبين الحروف على ترتيبها الطبيعى فاذا بلسان

القفل يتحرك من مكانه . واخرج لوبين من منطقته اداة صغيرة دسها فى ثقب القفل وادارها فانفتح باب الخزانة على الفور .

القى لوبين نظرة على داخل الخزانة وشهق .. لم يصدق ماترى عيناه .. لم تكن الخزانة صغيرة الحجم كما يومى بذلك بابها اذ كانت طويلة ممتدة فى داخل الجدار وقد انتظمت رفوفها علب مفتوحة ملأى بالجواهر التى يخطف سناها الابصار .

كانت هناك مئات بل الوف من الماسات واليواقيت مصفوفة على رفوف الخزانة وقد وضعت الى جانب كل مجموعة منها بطاقة صغيرة تبين تاريخ سرقتها واسم صاحبها الذى سرقت منه .

على انه كان فى هذه اللحظة فى شغل عن الجواهر .. كان المفتاح الحديدى الحقير الذى تفتح به بوابة الكهف أثمن عنده الف مرة من هذه الجواهر التى لا يقل ثمنها عن مئات الالوف من الجنيهات .. ! نعم .. لو انه خير بين هذه الجواهر والمفتاح لآثر المفتاح عليها .

وقلب لوبين بصره فى ارجاء الخزانة وارى المفتاح !

وفى سرعة خاطفة مد يده وتناوله كأنما يخشى ان تخطفه يد اخرى .

دس المفتاح فى جيبه وهم بان يدور على عقبيه راجعا ادراجه ولكن بريق الماسات فتنه واستهواه .. ! لماذا لايحشو جيوبه بها .. ولكن لا .. ؟ لو انه فعل لاسترعى نقص الجواهر نصر بكلى ولبحث عن المفتاح فاكتشف سرقته . ولوبين فى حاجة الى يوم واحد قبل ان تكتشف السرقة . كلا فليدع الجواهر اذن مكانها ، حسبه ان ينال المفتاح فانه ان طمع فى الجواهر لفت الانظار .. واثار الريب والشكوك .

ولكن قلبه مع ذلك لم يطاوعه ان يدع الجواهر كما هى دون ان يمسها ، انه لن يأخذ منها حفنة او حفنتين ، حسبه

ان يأخذ ماسة واحدة من كل مجموعة ، بل من بعض المجموعات
ومد لوبين يده واختار بعض الماسات فدسها فى جيبه . ثم رد باب الخزانة واغلقه كما كان . ثم اقترب من النافـــذة وارسل بصره الى الطريق .

كان الميدان باديا أمام عينيه وهو واقف بالنافذة يراقب الطريق .. ولكنه لم ير احدا من الحراس ، غير انه كان موقنا ان هناك حارسين على الاقل تحجبهما عنه نتوء المنازل .

فتح لوبين النافذة وابرز راسه منها فى حذر فسمع حديثا يدور بين حارسين . ولم يكن هناك مفر من ان يتأكد من مكان وقوفهما وهل يستطيع ان يغادر البيت دون أن يرياه !

تخطى لوبين سياج النافذة ووقف على نتوئها الخارجى بحيث يستطيع ان يرى كل ركن فى الميدان .. راى الحارسين عند باب الدار يتبادلان الحديث وقـــد انكبا على الصحيفة المنشورة بين ايديهما يحاولان ان يحلا لغزا منشورا فيها .

وجعل لوبين يكدح ذهنه .. لافى حـــل اللغز وانما فى الوسيلة التى يستطيع بها فرارا من الدار ! لو انه خرج من باب البيت وسار لصق الجدران لرآه احد الحارسين بلانزاع وحسب احدهما ان يدير رأسه قليلا ليراه ! فما العمل ؟

فى المرة الاولى عند قدومه كان هناك حارس واحد فكان من السهل تحويل بصره الى جهة معينة اما الان فما العمل ؟

فكر لوبين طويلا دون ان يقع على حـــل معقول . اترى يحسن به ان يعمد الى الحيلة الاولى ؟ ايرمى النافذة بحجر حتى يسترعى بصرهما الى ناحيتها ! ولكن التجارب علمته ان لايلجأ الى حيلة واحدة مرتين والا انكشف امره فى المرة الثانية !

ولكن ما الحيلة الان وهو لايجد وسيلة اخرى ينقذ بهـــا نفسه !

رجع لوبين الى داخل الغرفة واخرج من منطقته قطعة

من الحديد . ثم تخطى سياج النافذة ثانية ووقف على بروزها الخارجى وسار عليه فى حذر خشية ان تزل قدمه فيسقط الى الارض .

رفع لوبين ذراعه وطوح قطعة الحديد بكل قوته فعبرت الهواء واصابت زجاج النافذة فحطمته . ذهب الحارسان واقفين وارسلا بصرهما الى النافذة المهشمة ! وبذلك اوليا ظهرانهما الى باب الرئيس . . وفى هذه الفترة الوجيزة كان لوبين قد خرج الى الميدان وعبره مسرعا وتوارى فى احـــد الشوارع مطمئنا الى ان الحارسين لن يرياه مادام بصرهما عالقا بالنافذة .

وبعد لحظات برز راس من النافذة . راس تتوسطه عينان غاضبتان تنبعث منهمـــا الشرر ولكن الحارس الغاضب لم يستطع ان ينفس عن صدره وينطق بكلمة واحدة خشية بطش يكلى . فاكتفى من ثورته بان لوح بقبضتـه مهددا متوعدا .

وعندما اختفى الراس الغاضب شرع لوبين فى اجتيـــاز الشوارع متجها الى بيت ميلر .

وعلى الرغم من طواف الحراس فى الشوارع المختلفة لم ينكشف امره وكما استعان بالصندوق المصنوع من الورق المقوى فى قدومه استعان به ايضا فى عودته .

وقبل ان يدخل لوبين الى شارع سوثمبتون راى حارسا يبرز فجاة من خلف المنعطف .

لم يكن لوبين بالرجل الذى يضطرب ازاء المواقف الحرجة المفاجئة . . كان له ذهن نير صاف لا يخبو .. بل ان هـــذا الذهن ما كان ليتقد ويرسل ومضاته القوية الا اذا احرجته الظروف .

هو ذا الحارس يبرز فجاة فى الطريق .. ولم يكن هناك مجال للعودة فما العمل . لو ان شخصا اخر خلاف لوبين فى مثل هذا الموقف لاسلم ساقيه للريح ولتلقى فى ظهره عشرات

من الرصاصات . او لوقف مكانه جامدا لايدرى ماذا ينبغى ان يصنع !

ولكن لوبين لم يفعل شيئا من هذا !

لم يكد يرى قدما تبرز من خلف المنحنى .. تتبعها ذراع .. حتى ادرك ان ما ظهر حتى الان ليس الا « مقدمة » حارس لايلبث ان تبدو بقية جسده .

وهكذا قبل ان تظهر بقية الجسد ، كان لوبين قد فكر ونفذ .. اسرع الى باب البيت المجاور له ففتحه على عجل ودخل .. ثم اغلقه خلفه .

وكانت الدقائق التالية من احرج مامر به .. لم يكن على يقين من ان الحارس لم يره .. اذ من المحتمل جدا ان يكون الحارس قد لمح ظهره وهو يختفى فى البيت . او من المحتمل ان يكون قد راى الباب وهو يتحرك عند ابصاره ! ومهما يكن من الامر فالمسالة خطيرة لايدرى احد كيف تنتهى . ان حياته فى هذه اللحظة معلقة فى كفة القدر .

ولم يكن فى وسع لوبين ان يتحرك وهو واقف خلف الباب ولا ان يختفى فى احدى الغرف . اذ ما يدريه ان هذا البيت شبيه فى نظامه ببيت ميلر .. ان من المحتمل ان يكون اصغر منه حجما وقد يدخل غرفة فيجدها مخدعا يستيقظ من فيه وبذلك تقع الكارثة الكبرى .

وسمع لوبين آهة صادرة من احدى الغرف .. هذا رجل يحلم فى نومه .. وقد بدا يتقلب فى فراشه .

وهذه خطوات الحارس تدنو من البيت .. تدنو على مهل .. وفى حذر .. اذن فقد لمحه الحارس وهو يدخل الدار .. هاهو ذا يقترب .. ويقترب . فى حذر . وحرص .

والنائم مازال يتقلب فى فراشه . !

وادرك لوبين ان النكبة قد حلت .. ! بعد لحظات سيجد نفسه محصورا بين الحارس من الامام وصاحب الدار من

الخلف .. ! لا مهرب له ولا مفر . !

واقتربت اقدام الحارس من الدار .. وفجاة تجاوزتها وتابع سيره ! اما صاحب البيت فسكن واستغرق فى النوم من جديد .

وبعد خمس دقائق غادر لوبين الدار .

وظل ينتقل من شارع الى شارع حتى انتهى الى بيت ميلر فدخله

وما كاد يتخطى العتبة حتى غمر الضوء الكهربائى المكان .. كانت سالى وزوجها جالسين فى الردهة مستيقظين يترقبان عودته !

وحملق فيه جيم وقال فى صوت متهدج :

ـ هيه ؟

ولم يطاوعه لسانه على ان ينطق بكلمة اخرى .

فضحك لوبين ودون ان يجيب اخرج المفتاح من جيبه وقدمه اليه . .

وحملق جيم فى المفتاح ، ثم تهالك على احد المقاعد كانما لا تحمله ساقاه وهتف يقول :

ـ يا الهى ! مفتاح البوابة ! مفتاح البوابة !

فغمغم لوبين يقول :

ـ بل مفتاح الحرية

الفصل العاشر

فى بكور اليوم التالى دخل جيم قاعة الاستقبال فاستيقظ ارسين لوبين ، فبادره جيم بقوله :

ـ هل استطعت حقا ان تظفر بالمفتاح فى الليلة الماضية ؟ انى لا اكاد اصدق ان هذا صحيح !

فضحك لوبين وقال :

ـ ولم لا يكون صحيحا . الم تر المفتاح بنفسك ياجيم لقد كان مودعا فى خزانة بيكلى !

فهز جيم راسه وقال :

– ليت شعرى كيف استطعت ان تظفر به ؟ الم يكن هناك حراس فى الطرقات ؟ الم يكن هناك حارس قائم عند باب البيت ! ؟ وكيف استطعت أن تتسلل الى البيت وتفتح الخزانة دون ان يشعر بك بيكلى ؟

بل كيف استطعت ان تفتحها ؟

وضحك لوبين ثانية وقال :

– اما فتح الخزانة فكان من اهون الامور ، واما الحراس فكانوا يملأون الطرقات حتى لقد خيل الى ان عددهم قد تضاعف !

– ولكن كيف استطعت ان تصل الى البيت دون ان يراك احدهم ؟ وكيف استطعت ان تعود ادراجك ؟ الم يرك احد منهم ؟

– لو انهم راونى لما رايتنى الان هنا حيا . ! ولكنى سانبئك بالتفاصيل اثناء تناول الفطور .

وهز جيم راسه وقال :

– انى لا اكاد اصدق شيئا من هذا .. دعنى القى نظرة اخرى على المفتاح .

فقال لوبين باسما :

– هذا غير ممكن ياجيم . ! لقد خبأت المفتاح !

– خبأته . ! ولماذا ؟

– لن استعمله قبل حلول الليل فما الذى يدعونى الى ابقائه معى وقد يضيع منى لسبب من الاسباب

فضحك جيم وقال :

– يضيع منك انت . لو ان الشيطان نفسه حاول ان يسرقه منك لعجز !

فابتسم لوبين وقال :

– شكرا على هذا الثناء !

– انى اعنى ما اقول حقا ! لقد صرت اعتقد انك لا تعرف المستحيل . كل شىء عندك ممكن ! ومع ذلك .

وسكت فقال لوبين :

– ومع ذلك ؟

– ومع ذلك فلست ادرى كيف تستطيع مغادرة الكهف حتى ولو كان المفتاح فى حوزتك ! ان الحراس نائمون عند البوابة !

– ولقد كان الحراس قائمين ايضا عند باب بيكلى ! فهل ردنى وجودهم عن الدخول ؟

– وهبك استطعت التخلص من الحراس فما عساك تفعل بجرس الانذار ؟ لو ان البوابة فتحت لرددت الكهوف رنينه

– وما يعنينى انا من الامر ما دامت البوابة قد فتحت اذا ما فتحت البوابة انطلقنا نجرى هاربين ولن يستطيع اهل الكهف مطاردتنا الى الخارج خشية الوقوع فى ايدى البوليس ؟

وهتف جيم يقول :

– يا الهى ! لقد خيل الى وانا اسمعك تتكلم يالوبين ان الفرار من الكهف اصبح ممكنا .

واشرق وجهه وهو ينطق بهذه الكلمات . ولكن سحابة من الغم ما لبثت ان علت سحنته وتمتم يقول :

ولكن هبهم تبعونا الى الخارج ان الحراس لن يترددوا فى مطاردتنا حتى لا تكشف للبوليس سر الكهف

وكان هذا صحيحا .. وما كان لوبين ليجهل ان فى الامر مخاطرة كبيرة .. فقد تستمر المطاردة خارج الكهف .. كما از من المحتمل ان يكون مدخل الكهف واقعا فى مكان مهجور فى قلب غابة مثلا .. واذ ذاك تكون المطاردة الخارجية من اهون الامور .. كانت هناك احتمالات كثيرة ولكن لوبين لم يشأ ان يرهق نفسه بالتفكير فيها الان .. حسبه من الامر انه ظفر

بالمفتاح . . وما دام قد نجح في اتخاذ الخطوة الاولى فانه من المحتمل جدا ان ينجح فى الخطوة الثانية ايضا ومهما يكن من الامر فلا بد من القيام بالمحاولة حتى ولو افضى الامر الى موته ما دام الموت هو المصير الوحيد لو بقى فى الكهوف .

ولكن جيم الح عليه بالسؤال فقال لوبين :

ــ لقد فكرت فى هذا كله وسأتخذ من اسباب الحيطة ما يكفل النجاح .

ــ كيف ؟

ــ ساعطل الجرس عن العمل ؟

ــ كيف ! !

ــ لست ادرى .. ولكنى سأبحث عن الوسيلة .. وربما تسللت الى مصنع الكهرباء وقطعت التيار الكهربائى . . سنرى على اية حال .

ولما اوشكو ان يفرغوا من تناول الفطور قال جيم وقد لاحت امارات الحيرة على وجهه :

ــ يظهر انه لا بد لى ان اسالك عدم المبيت الليلة فى البيت

فضحك لوبين وقال :

ــ هذا امر مفروغ منه .. لانى الليلة لن ابيت فى الكهوف على الاطلاق .. ولكنى ارجوك اولا ان تعيرنى قميصا ملونا من قمصانك ارتديه فوق قميصى الاسود .

ــ لك ما شئت !

ــ وما العمل الذى استطيع ان ازاوله اليوم ؟

ــ العمل .. !

ــ اما ذكرت لى ان جميع الرجال فى هــــذه الكهوف ملزمون بالعمل ؟

ــ هذا صحيح .. !

ــ انى اريد عملا يتيح لى فرصة الانتقال من شارع الى شارع .

وبعد ان فكر جيم برهة قال :

ــ يمكنك ان تشتغل زبالا تنقل القمامة من البراميل الى مستودعها .

ــ واين الغرارة التى احمل فيها القمامة ؟

ــ ساعيرك غرارة .

ــ شكرا لك .. ان هذه المهنة تلائمنى جدا اذ ستمكننى من الطواف فى الكهوف دون ان اثير الريب .. وعندما يرانى الناس امر فى احد الاحياء ظنوا انى اعمل فى حى اخر . . وهكذا . . !

وقالت سالى :

ــ واين ينوى لوبين ان يتناول غداءه ؟

ــ فى الحانة .. وسازوده بما يكفى من النقود

ــ لن اكون فى حاجة الى الغداء .. لانى لا اريد ان اغشى الحانة حتى لا الفت الانظار .

فقالت سالى :

ــ والعشاء .. ! كلا يا لوبين .. يجب ان تحضر لتناول الطعام معنا .. ! اننا لن نرضى بان نحملك هذه المشقة .. اما فى الغد .

فقاطعها لوبين بقوله :

ــ لن يكون هناك غد يامسز ميلر .. فى الغد سنكون خارج الكهوف او ساكون انا جثة هامدة !

بعد ان فرغوا من تناول الفطور حمل لوبين غرارته على ظهره بعد ان ارتدى فوق قميصه الاسود القميص الذى اعاره له جيم . ثم خرج الى الطريق واخذ ينتقل من شارع الى شارع .

وحين بلغ ميدان مانشستر لاحظ ان اغلب الحوانيت قد علقت لوحات عند ابوابها عليها عبارات يفهم منها ان اصنافا معينة من الطعام « كالبطاطس والسجائر واللحوم .. الخ »

قد فرغت وان لابد من انتظار الشحنة التالية .

وعبر لوبين ميدان مانشستر ومضى الى ميدان برمنجهام فبدا دوى الات المصانع فى اذنه واضحا جليا .. لو انه استطاع ان يصل الى مصنع الكهرباء لتمكن من تعطيل الالات حتى يفسد جرس الانذار .

وانتهى به المطاف اخيرا الى ميدان سوتند .. وفى صدر هذا الميدان تقوم البوابة .. بوابة الحرية .. ترى ايستطيع ان يتجاوز هذه البوابة الى عالم النور والشمس والازهار .. ام قضى عليه ان ينقلب جثة هامدة اثناء محاولته الفرار ؟

ولاحظ لوبين ان على جانبى الشارع المفضى الى البوابة اكشاكا خشبية جعلت لاقامة الحراس فيها فلو انه استطاع ان يتسلل مع جيم على مقربة من هـذه الاكشاك لامكنه ان يفاجىء الحراس فياخذهم على غرة .. ولكن كيف السبيل الى الاقتراب من الاكشاك ؟

لم يكن لوبين فى هذه اللحظة يعلم على وجه التاكيد الوسيلة التى تمكنه من ذلك ولم يكن فى وسعه ان يطيل النظر الى الاكشاك خشية ان يحرك الوساوس فى صدور الحراس القائمين هناك فتابع سيره دون ان يلتفت خلفه .

وفجاة تفتق ذهنه عن خطة لتذليل هـذه العقبة ! فى وسعه ان يتسلل مع جيم الى اقرب بيت للاكشاك فيصرعان سكانه ويكممان افواههم وبعد ذلك يخرج لوبين من البيت فيراه الحراس ولكن قبل ان يسددوا اليه بنادقهم يكون قد اختفى خلف المنعطف . ويسرع الحارسان خلفه بطبيعة الحال ويكون لوبين قد تهيا للامر بمد سلك عبر الطريق يتعثر فيه الحارسان فيقعان على الارض وقبل ان ينهضا من سقطتهما يخرج جيم من المنزل ويصرع احدهما بضربة من حجر على راسه ويشتبك مع الثانى . ويخف لوبين الى نجدته فى هـذه اللحظة ويصرعان معا الحارس الثانى .

بهذه الطريقة ينقلب الحارسان مشلولين لا يملكان الاقدام على اى عمل فيفتح لوبين البوابة ويفر هاربا وفى رفقته جيم وزوجته وابنتها .

وكان لوبين يسير وغرارته على كتفه مبتهجا مسرورا اذ اهتدى الى هذه الخطة المحكمة التى لا نزاع فى نجاحها ولم يزعجه ان تخلو الطرقات من الرجال اذ انصرفوا جميعا الى اعمالهم فى المصانع او الحوانيت فلو ان احدا راه لظنه الزبال المكلف بجمع القمامة .

ومر لوبين باحد الشوارع فراى نفرا من النساء جالسات عند الابواب يطرزن فسالته احداهن عن الزبال الثانى واين ذهب فابتسم لوبين وقال :

— سياتى طبعا بعد قليل .. انى لم احل مكانه انى ذاهب الى حى اخر .

ودار لوبين حول المنعطف وانتقل الى شارع ثان وفجاة راى جمعا من الناس محتشدين فى ميـــدان مانشستر وقد وقف الحراس عندهم .

وصاح احد الحراس بلوبين :

— تعال يا هذا وانضم الى هؤلاء !

وعض لوبين على شفته لم يكن هناك مجال للتراجع او الفرار . لقد ادرك منذ النظرة الاولى حقيقة ما حدث لقد عرف بكلى ان المفتاح سرق من خزانته فامر بالبحث عنـه فشرع الحراس يفتشون اهل الكهف فكلما مر بهم رجـــل استوقفوه وفتشوه !

اذن فقد اكتشفت سرقة المفتاح فهل قضى عليه بان يظل سجينا فى الكهف مدى الحياة ؟

الفصل الحادى عشر

انضم لوبين الى صف الرجال الذين يترقبون نوبتهم فى التفتيش وصاح به الحارس :

– ارفع ذراعيك الى الاعلى ولا تنزلهما الا اذا اردت ان اطلق عليك النار .

ورفع لوبين ذراعيه فى يأس .. لقد انهارت خطته ولم يعد له رجاء فى الفرار ! لقد دبر الامر بحيث يضمن النجاح ولكن الامور انعكست وانقلبت اوضاعها وصار النجاح مستحيلا ! مستحيلا ! وهو الرجل الذى كان يعتقد منذ دقائق ان لا مستحيل فى الدنيا !

ولم يحزنه الاخفاق من اجل نفسه . . وانما من اجل الاخرين الذين ركنوا اليه وتفتحت زهور الامل فى قلوبهم .. لقد اطمأنوا الى النجاة على يديه ولكنه الان سيتخلى عنهم ويملأ صدورهم يأسا بعد ان شاع فيها الرجاء .

وكان الحارس كلما فرغ من تفتيش احد الرجال امره بالسير الى جهة اخرى يعزل فيها عمن لم يفتشوا بعد فلم يكن فى وسع لوبين ان يضلل وينضم خلسة الى الاخرين .

واقترب منه الحارس اخيرا اذ حان دوره وقال :

– ما اسمك ؟

– ويليام جونز !

– مهنتك ؟

– زبال

– وعنوانك ؟

– شارع اكستر

– رقم ؟

– ستة

وحدق الحارس فى لوبين وقد استرعى بصره اسمرار سحنته من اثر الشمس وقال :

– اجئت الى الكهوف حديثا ؟

– منذ ثلاثة ايام

– اين كنت فى الليلة الماضية ؟

– نائما بالطبع

– وما الداعى الى « بالطبع » هذه ؟ الا تعجبك اسئلتى ؟

– اسألك المعذرة يا سيدى !

– ماهذا ؟

وفك ازرار قميصه ودس يده تحته ثم اخرجها فاذا قبضها الحزام الجلدى المشدود حول وسط لوبين والذى يودعه الادوات والالات التى يستعملها فى اللصوصية .

وفحص الحارس الحزام ثم نادى زميله قائلا :

– توم ! ما رأيك فى هذا ؟

ففحص الثانى الادوات بدوره ثم قال :

– انها آلات يمكن ان تستعمل فى فتح ابواب المنازل واغتصاب الخزانات .. لعمرى ان الرئيس يجب ان يقابل صاحب هذه الادوات .

وحمل الحارس الثانى بندقيته وقال يخاطب لوبين :

– سر امامى

ومضى به الى دار الرئاسة ، وكان لوبين يسائل نفسه عما اذا كان جيم قد رآه من احدى النوافذ وعرف ماصار اليه امره . وما عسى يكون من امر المسكين حين يرى فجأة ان الآمال قد انهارت وتهدمت !

وسيق لوبين الى مقر الرئاسة وادخل غرفة لم ير فيها الا مكتبا وثلاثة مقاعد .

وبعد قليل فتح الباب ودخل الرئيس بيكلى .

وكان مديد القامة ، ذا سحنة بشعة لا ينظر اليها المرء الا تبين ان الرجل مولع باراقة الدماء .

وجلس بيكلى على المقعد الموضوع امام المكتب وقال :

– هيه .. ماذا جرى يابرت ؟

فاشار الحارس الى الحزام الموضوع على المكتب قائلا :

– الق نظرة على هذا الحزام ؟

وفحص بيكلى الادوات وتمتم يقول :

— ادوات على غاية من الدقة والاتقان .
ثم التفت الى لوبين قائلا :
— ماذا كنت تفعل بهذه الادوات ؟
— لم اكن افعل شيئا بها الان . ؟ لقد كانت معى عند قدومى .
— ولماذا استبقيتها معك .. الم تؤمر عند دخـــولك الكهف بان تسلم كل ما معك ؟
— لقد ضننت بها لانها ادوات نادرة لامثيل لها .
— اكنت ترجو منها اية فائدة وانت فى هذه الكهوف ؟
— كلا
— ومع ذلك فقد اصررت على الاحتفاظ بها !
وكانت نبرات صوته قد اشتدت وقست ثم قال :
— ما اسمك ؟
— وليام جونز ؟
فاخرج بيكلى من درج امامه دفترا جعل يقلبه وهـــو يقول : « جيمز .. جونز . »
ثم مال الى الامال قائلا :
— هاهو الاسم .. وليام جونز . اذن فقد كان هـــذا الحزام معك عندما جئت الى الكهوف منذ ثمانية شهور ؟
— نعم
وما سمع الحارس قوله هذا حتى صرخ :
— ماذا تقول ! منذ ثمانية شهور . انه لم يقض فى هذه الكهوف ثمانية شهور ؟
فقال الرئيس :
— ماذا تقصد يابرت ؟

— عندما سالته ذكر لى انه لم يمض فى هـــذه الكهوف الا ثلاثة ايام .. انى اراهن ايها الرئيس على انه الرجل الذى نبحث عنه .. ان سلوكه واجاباته مريبة !
فقال بيكلى يسأله :
— اذن فانت لم تحضر الى هذه الكهوف الا منذ ثلاثة ايام ؟
وابتسم بيكلى ابتسامة شيطانية رهيبة وقال :
— ماهو عنوانك ؟
— المنزل رقم ٦ شارع اكستر
فتناول بيكلى دفترا اخر قلب صفحاته حتى انتهى الى صحيفة معينة منها قراها ثم نهض واقفا واقترب من لوبين وقال فى صوت هادىء رهيب :
— متى جئت الى هذه الكهوف ؟
— لقد أجبت من قبل على هذا السؤال .. منذ ثلاثة ايام .
— انك كذاب مدع ! آخر مرة فتحت فيها البوابة كانت يوم الاربعاء الماضى !
وصاح الحارس يقول :
— يا الهى . كيف اذن استطاع الدخول ايها الرئيس ؟
— اخرس انت .. كيف دخلت الى الكهف ؟
— من البوابة طبعا . . فاذا كانت لم تفتح الا فى يوم الاربعاء الماضى فلا شك انى اخطات حساب الوقت اذن . . لاشك انى جئت يوم الاربعاء !
— ومسالة العنوان ! ما قولك فيها ؟ ليس فى المنزل رقم

٦ بشارع اكستر ساكن على الاطلاق ! انه خال !

وكان هذا صحيحا فقد لاحظ لوبين ان المنزل خال وهو يطوف بالكهوف .

واسترسل بيكلي في لهجة غاضبة :

ـ تكلم من انت ؟ وكيف دخلت الكهوف ؟

فقال لوبين في اصرار :

ـ من البوابة ؟

فابتسم بيكلي ابتسامته الشيطانية وقال :

ـ لو انك امضيت في الكهوف زمنا طويلا لعرف عني الشيء الكثير .

فقال لوبين في هدوء :

ـ لقد عرفت يا بيكلي انك قاتل ! اذا كان هذا هو ماترمي اليه ؟

ـ اذن فقد عرفت ما فيه الكفاية ! هذا هو مصيرك . . خذه يابرت .

ـ الى اين ؟ الى الزنزانة ؟

ـ نعم .. وسأريه الطريقة التي نتخلص بها من امثاله !

ثم التفت الى لوبين وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامته الرهيبة وقال :

ـ يمكنك ان تقضي الوقت في الصلاة .. اذا كنت تعرف كيف تصلي .. فبعد ساعة لن تكون الا جثة هامدة .

ولم يكن هناك خفاء في ان لهجته كانت لهجة الرجل المولع بسفك الدماء .

وساق الحارس لوبين الى كشك قريب من دار الرئاسة

ذي سقف منخفض اضطرا عند دخوله الى احناء رأسيهما . وفي اقصى هذا الكهف فجوة في الارض هي مدخل « الزنزانة » التي تحدث عنها الحارس . وقد اقيم على الفجوة سياج من الحديد مزود بقفل كبير .

ومال الحارس فوق القفل يفتحه وبندقيته مصوبة الى لوبين بحيث تكفي اقل حركة يبديها لكي يضغط الحارس على الزناد فاذا لوبين جثة هامدة . . ولو قبل انقضاء الساعة الموعودة !

ورفع الحارس باب الزنزانة وامر لوبين بالنزول فالفى امامه درجا من الصخر ممتدا الى باطن الهاوية فهبطه وعند ذلك رد الحارس السياج كما كان واغلقه بالقفل . ولم يكن للوبين بد من الاذعان اذ ما عساه يستطيع ان يفعل ازاء بندقية الموت ؟

ـ لا تنس صلاتك .. ان الرئيس لا يلبث ان يحضر اليك ومعه جرتي . ولكيلا يتبادر الى ذهنك ان جرتي هذا شاب ظريف فاعلم انه مسدس الرئيس .. وقد اطلقنا عليه هذا اللقب وقد قتل به الرئيس حتى الان اثنى عشر شخصا !

ولوح الحارس بيده ومضى واشتمل السكون المكان .

وكانت الزنزانة ضيقة لا تزيد مساحتها على مترين في ثلاثة امتار وقد نحتت في الصخر الاصم ولم يكن فيها مقعد يجلس فوقه سجين . فلا مفر للمرء ان اراد النوم او الجلوس من افتراش الارض الصخرية غير الممهدة ولاحظ لوبين ان الارض مندأة بالماء فايقن ان هناك بلا ريب ثقوبا في الصخور يرشح منها ماء النهر ولكن لاريب ان هناك ثقوبا اخرى تصرف الماء منها والا امتلأت به الزنزانة .

وكان هناك مصباح صغير مثبت في سقف المكان اطمان

اليه لوبين وازال عنه وحشته وان كان موقنا من ان هـذا المصباح لم يوضع مكانه الا لكى يرى بيكلى ضحاياه على ضوئه حتى يرسل اليه التحية من مسدسه جوتى !

وجال (لوبين) نظره فى المكان فلم يغب عنه ان الفرار مستحيل اذ كيف يجد له مخرجا من صميم الصخر ؟ لو انه كان نملة لما وجد شقا يلوذ به .. ! اذن فتلك هى النهاية ؟

وتتابعت الدقائق حتى اذا انتظمت قرابة الساعتين سمع لوبين وقع اقدام تقترب ، ثم صوت بيكلى وهو واقف عند راس الزنزانة يخاطبه بقوله :

ـ هيه ؟ هل صليت ؟ انى نازل اليك يا مستر جونز لاملأ معدتك بالرصاص !

وكان فى رفقته حارس تولى فتح باب الزنزانة ، فهبط بيكلى الدرج ، على حين ظل الحارس عند المدخل وبندقيته مهياة تاهبا للطوارىء . !

وضحك بيكلى وقال فى وحشية :

ـ هيه ! الا تريد ان تجيب ! ابتعد اذن الى ركن الزنزانة وارفع يديك الى الاعلى .

فضحك لوبين وقال :

ـ يا لله ! الا زلت خائفا منى وانا اعزل من السلاح . ؟

ـ اطبق فاك بالجدار ، واياك ان تعصى لى امرا ؟

ـ وما الذى يدعونى الى اطاعتك ؟

ـ اذا عصيتنى قتلتك كالكلب الحقير . !

ـ واذا اطعتك قتلتنى كالكلب غير الحقير ! الموت هو

المصير فى حالتى الطاعة والعصيان ! هيا اقتلنى وعجل ، ولاداعى للثرثرة !

فقال بيكلى فى وحشية :

ـ سمعا وطاعة يا صديقى ، وسافرغ مسدسى فى قلبك هذا هو مصير امثالك فى هذا الكهف !

فابتسم لوبين وقال :

ـ اذن فانت الرئيس والجلاد فى آن واحد !

ـ نعم .. واذا استزدتنى ايضاحا قلت لك انك الرابع عشر الذى اطلقت عليه النار فى هذا الكهف !

ـ اذن فستقتلنى عن عمد واصرار ؟

ـ ان تنفيذ احكام الاعدام لا يمكن ان تتم الا عن عمد واصرار .

ـ وموتى ليس تنفيذا لحكم الاعدام . ! انه جريمة قتل ..

فهز بيكلى كتفيه فى ازدراء وقال :

ـ كلمتى هى القانون النافذ فى هذه الكهوف يا مستر جونز .. فاستعد !

وفى بطء وتؤدة قصد بهما بيكلى الى تعذيب السجن رفع مسدسه وسدده الى قلب لوبين .

الفصل الثانى عشر

قال ارسين لوبين يسأل بيكلى فى صوت عادىء لا ينم عن الاهتمام :

ـ اعثرت على مفتاح البوابة ؟

فاهتز المسدس فى يد بيكلى وصاح :

ــ ماذا تقول ؟ ما الذى تعرفه عن المفتاح ؟

وخفض مسدسه ونظر الى لوبين مستفسرا .

ــ لا اعرف الا القليل ! انا الذى سرقته من خزانتك . . كان موضوعا فى صندوق صغير احمر اللون . !

ومرت لحظات وبيكلى يحملق فى السجين دون ان يقوى على النطق ثم صاح اخيرا ينادى الحارس :

ــ برت . . اسمعت ما يقول ؟ انه هو الذى سرق المفتاح انزل وفتشه . . اذن فانت الذى سرقت المفتاح ! عقابا لك على هذه الجريمة لا بد ان . . لابد ان . .

فقال لوبين هازئا :

ــ لابد ان تقتلنى مرة اخرى ! ان الامر مستحيل كما ترى ! ومع ذلك فلا داعى لتفتيشى لان المفتاح ليس موجودا معى !

ــ سنرى ! لست اصدق اكاذيبك بعد الان . . فتشه يابرت !

وهبط برت الى الزنزانة وفتش لوبين تفتيشا دقيقا دون ان يعثر فى جيوبه او بطانات ثوبه على المفتاح المنشود .

ــ انه ليس معه !

ــ ولكن لابد ان يكون معه !

ــ لقد رايتنى وانا افتشه !

فانبرى لوبين يقول :

ــ اصدقتنى الان ؟

فصاح الرئيس :

ــ فليكن ! لابد لى ان اقتلك سواء كان المفتاح معك او لم يكن .

اذا قتلتنى فلن يقع بصرك على المفتاح مرة اخرى !

وصاح الحارس يقول :

ــ لا تقتله ايها الرئيس والا لم نهتد الى المفتاح ثانية ولم نفتح البوابة .

ــ اطبق فمك ايها الابله . ! اليس فى الكهف من يستطيع ان يصنع مفتاحا للبوابة .

ــ وهبك لم تجد فما يكون العمل ؟

ــ وما اهمية ذلك ! انك تعلم انه مقضى علينا بالبقاء فى الكهوف حتى يدركنا الموت .

ــ هذا صحيح . . ولكن كيف نخرج المنتجات ؟

فعض بيكلى على شفته وقال :

هذا صحيح . . فلنرغم هذا النذل على الكلام اذن .

فقال لوبين مقترحا :

ــ اقتلنى اولا وبعد ذلك سلنى عن المفتاح . . . !

فقال الرئيس وهو يلوح بيده مترددا :

ــ اخبرنا اين المفتاح والا . .

ــ والا ماذا . . ؟

ــ هناك وسائل كثيرة للتعذيب وعند ذلك ستجد نفسك مرغما على الكلام . سادعك بلا طعام او شراب وسنرى بعد يوم او يومين اذا كنت تصبر على هذا الجوع !

فقال برت :

ــ هذه خطة حكيمة . . فلندعه يعانى آلام الجوع ، وعلينا

فى خلال ذلك ان نعهد الى احد العمال بصنع مفتاح جديد ،اذا استطاع قتلنا هذا اللص بلا رحمة او شفقة .

وصعد الحارس يتبعه الرئيس .

وقال بيكلى وهو واقف عند مدخل الزنزانة :

– سنرى اذا كنت ستكاشفنا بمخبأ المفتاح ام ستظل مصرا على الكتمان .

ومضى مع الحارس .. وجعل لوبين يتدبر الموقف .. لن يكون صنع مفتاح آخر من المستحيلات وان استغرق الامر وقتا ، فعليه فى خلال ذلك أن يتحين فرصة للفرار . ولكن كيف السبيل ! ان قفل الزنزانة من صنف عادى سهل اغتصابه لو ان ادواته كانت معه .. اما الان وقد جرد من حزامه فلا سبيل له الى اغتصاب القفل !

ولكن لوبين لم يكن بالرجل الذى يفقد الامل حتى فى احرج الظروف ، مضى يجول فى انحاء الكهف ويفحص الجدران فالفاها كلها منحوتة فى الصخر ليس فيها منفذ سرى .. اذن فقد قضى عليه بالبقاء فى هذا الكهف .. ومن يدرى ! قد يموت جوعا اذا لبث مصرا على الكتمان .

اه .. انه لينزل من حياته عن بضعة اعوام لقاء قطعة من الحديد او مسمار .. بهذا المسمار يستطيع ان يغتصب قفل الزنزانة فمن له به .. ؟

نعم .. بالمسمار يستطيع ان يغتصب القفل اذا استطاع ان يصل الى القفل .

ولم يملك لوبين ان ضحك عندما دار هذا الخاطر فى ذهنه شانه فى ذلك شان الرجل الفقير الذى قال : « اذا كان عندنا

بيض لاكلنا بيضا باللحم المفروم اذا كان لدينا لحم مفروم ! »
والامر كله متوقف على « اذا » من جميع نواحيه !

واخذ لوبين يرتقى الدرج حتى اذا توسط السلم استحال عليه أن يصعد اكثر من ذلك اذ لم يكن الفراغ بينه وبين سياج المدخل ليتسع لجسده ولكنه احنى راسه وثنى جسمه واخذ يصعد درجة بعد درجة حتى كاد راسه يلتصق بركبتيه ثم دس ذراعه فى الفراغ الذى بين قضبان السياج واخذ يحشره حشرا ويحركه محاولا ان يلمس القفل باصابعه ولكن الامر استحال عليه . وكان لابد له ان يتخذ وضعا اخر يثنى جسمه فيه بطريقة اشد واقسى حتى يمد ذراعه من بين فراغ قضيبين قريبين من القفل .

وهبط لوبين السلم مرة اخرى .. وعند ذلك فكر فى الحروف والكلمات التى راها منقوشة على جدران الكهف .. كانت هناك شتائم منقوشة على الصخر موجهة الى بيكلى .. فلا شك ان كاتبيها بعض الذين زجوا فى هذه الزنزانة ترقبا لساعة الموت .. ولكن كيف نقشوا هذه الكلمات على الجدار الصخرى ؟ باظافرهم .. ان هذا مستحيل اذن فلا بد ان هناك قطعة من الحديد او مسمارا اتخذوه فى نقش هذه العبارات ، فاين هو ذلك المسمار ؟ لو انه عثر عليه لهان تحطيم القفل

وعول لوبين على البحث عن هذا المسمار .

اخذ يفتش فى اركان الكهف على مهل وفى دقة . ثم شرع يبحث فى الارضية ويجوس باصابعه خلال الماء الذى يغطيها وبين الاعشاب النامية هناك دون ان يجد اثرا لضالته المنشودة

وسمع وقع اقدام تقترب فكف عن البحث وسكن مكانه وبعد برهة ظهر بيكلي يحمل صحاف الطعام فوضعها عند فوهة الكهف وقال :

ـ هذا هو العشاء ..

واجفل لوبين اذ سمع هذه الكلمة .. العشاء .. امضت الساعات بمثل هذه السرعة ودون ان يشعر بالوقت .. بل دون ان يشعر بالجوع ايضا .

وعاد بيكلي يقول :

ـ الا تريد ان تتناول الطعام .. انظر .. لقد اتيتك بقطعة كبيرة من اللحم المشوى .. الا تشم رائحتها الذكية .. ومعها كمية كبيرة من البطاطس المحمرة .. وقدح من البيرة .

وجعل بيكلي يمصمص شفتيه .. وكان يرمي بذلك الى تعذيب لوبين واثارة رغبته حتى يحمله على الافضاء بمخبأ المفتاح اذا ما اغراه بالطعام .

ولكنه لزم الصمت لا يجيب فقال بيكلي :

ـ اذن فانت مضرب عن الكلام .. ! فليكن .. سأترك الطعام عند باب الزنزانه بحيث تستطيع ان تراه اذا ارتقيت بضع درجات . وسالقاك مرة اخرى في الصباح وارجو اذ ذاك ان تكون قد عدلت عن صمتك وقررت ان تتكلم .

وغادر بيكلي الكهف .

وعاود لوبين ابحاثه من جديد .. ولكنها لم تسفر عن شيء . فبعد ان فحص ارضية الكهف وجميع ما في جدرانه من شقوق ادرك ان لا رجاء له في العثور على هذا المسمار .

ومع ذلك فالمسمار (او قطعة الحديد) موجود بلا نزاع

والا فكيف نقشت هذه العبارات على الجدار الصخرى .

واخيرا لم يبق امام لوبين الا مكان واحد لم يبحث فيه . ذلك هو السلم . اخذ لوبين يرتقى السلم درجة بعد درجة وهو يبحث في شقوقها . وفجاة لمست اصابعه جسما صلبا داخل شق من شقوق السلم .

واخرج هذا الجسم الصلب فاذا هو مسمار .. عتيق .. منثنى .. يعلوه الصدا .. ؟

الفصل الثالث عشر

طار لوبين فرحا بهذا الاكتشاف وارتقى الدرجات الباقية من السلم وما كاد راسه يصطدم بالقضبان الحديدية حتى ثنى جسمه على وضع يمكنه من ان يصعد درجة اخرى ولكن ذراعه لم تصل الى القفل .. فثنى جسمه اشد من انثنائه الاول . واستطاع بذلك ان يصعد درجة ثانية . وحشر ذراعه بين القضبان حشرا واخذ يدير يده هنا وهناك بحثا عن القفل اذ لم يكن يراه وهو على هذا الوضع .

واخيرا لمست اصابعه القفل . واستخفه الطرب .. هناك اذن امل في النجاة ! امل في ان يرى العالم الاخر . ولكن ما اشد تفاؤله هناك امل في ان يفر من الزنزانة . اما الوصول الى العالم الاخر فذاك وهم اكثر منه حقيقة .. هب خرج من الزنزانة فكيف يعبر كل هذه الميادين حتى ينتهى الى البوابة وكيف يفتحها ويفر هاربا !

واول الامر كان ذلك سهلا لان القوم كانوا يجهلون ان

المفتاح قد سرق فما كان عليه الا ان يتغلب على الحارس الذى يتولى خفارة البوابة اما الان فلا شك ان الرقابة ضوعفت عندها .

وبعد لحظات ظهر بيكلى عند باب الزنزانة وقال يخاطبه :

ـ هذه فرصتك الاخيرة .. انتوى ان تتكلم ام تؤثر ان افرغ رصاص مسدسى فى قلبك !

فقال لوبين :

ـ وهبنى ارشدتك الى المفتاح فماذا يكون من امرى ؟

ـ ساقدم اليك الطعام والماء ..

ـ وبعد ذلك تفرغ مسدسك فى قلبى ؟ احسبتنى مجنونا انى اعلم انك لن تقتلنى ما دامت البوابة مغلقة .. ولكنك لن تتردد فى قتلى فى اللحظة التى ارشدك فيها الى المفتاح او فى اللحظة التى تصنعون فيها مفتاحا جديدا .

ـ اذن فلنعقدها صفقة رابحة لك ولى .. اذا ارشدتنى الى المفتاح ابقيت على حياتك وسمحت لك بان تعيش فى الكهف كفرد من رجال العصبة السرية .

ـ وما الذى يضمن لى انك ستبر بهذا الوعد ؟

ـ ساقسم على ذلك بشرفى .

ـ شرفك .. شرف قاتل سفاك ؟

وما نطق لوبين بهذه الكلمات حتى هاجت ثائرة بيكلى وصاح :

ـ قاتل سفاك .. والله انى لا كون مغفلا لو انى ابقيت عليك ساعة واحدة .. لابد ان اقتلك الان .. على الفور .

وصوب مسدسه الى لوبين .

وادرك لوبين انه اخطأ .. وان عليه الان ان يجد مخرجا من هذه الورطة قبل ان يطلق بيكلى النار فاسرع يقول :

ـ سيكون مركزك حرجا يابيكلى اذا طلب مجلس الادارة فتح البوابة غدا مثلا !

واصاب لوبين فى قوله هذا ، اذ ما سمع بيكلى هــذه الكلمات حتى هدات ثورته وذكر الورطة التى اوقعه فيها ضياع المفتاح وقال :

ـ هذا صحيح .. ولست اريد ان اطلعهم على ما حدث

وساد الصمت برهة ثم قال بيكلى فجاة وقد ابرقت عيناه ببريق الشر :

ـ فليكن ! لن اقتلك .. سابقيك حيا الى الغد ، ولكنى ساعرف كيف ارغمك على الكلام .. ساشوى قدميك بالنار شيا وساقطع اصابعك وآذانك .. ولكنى سامهلك الى مثل هذه الساعة من الغد ، وعند ذلك ستتمنى لو اننى قتلتك !

لم يكد بيكلى يبتعد حتى ارتقى لوبين الدرج ثانية وثنى جسمه على نفس الوضع السابق ، ومضى يعالج القفل ، وادرك ان سن المسمار سميك لا يغوص فى ثقب القفل الا قليلا ، فغادر مكانه ومضى يحك المسمار على الجدار الصخرى حتى انبرى طرفه الى الحد المطلوب ، ثم ارتد الى الدرج من جديد ومضى يعالج القفل .

ولم تكن المهمة هينة وهو لايرى القفل فى هذا الوضـع ولا يحسن امساكه ، ولكنه ابر على العمل على الرغم من تتابع الساعات وعلى رغم الالام التى كان يحسها وظهره مثنى على هذا الشكل .

وكانت دقائق الراحة القليلة التى يصيبها تنفس عنه بعض اوجاعه ، ولكنه لم يكن يسمح لنفسه براحة طويلة خشية ان يفوت الوقت .

واخيرا سمع تكة .. وعرف ان لسان القفل قد تحرك لقد انفتح باب الزنزانة .. باب الحرية !

وفى هذه اللحظة سمع لوبين وقع اقــدام تقترب من الكهف !

الفصل الرابع عشر

يالله ! اهكذا تقع النكبة فى وقت الظفر والانتصار ! فى اللحظة التى ينفتح فيها القفل يفاجئه بيكلى وحراسه وما العمل الان ؟ لو انه ترك القفل مفتوحا لفطنوا الى الامــر ولاقاموا عند الزنزانة حارسا يخفرها باستمرار ! لم يكن هناك اذن الا حل واحد : هو ان يغلق القفل كما كان .

وفى حسرة والم مد لوبين اصابعه ورد لسان القفل مكانه وهبط الى قاع الزنزانة .

واقترب وقع الاقدام وسمع لوبين صوت الحارس يقول:

ــ هذا صديق جاء يؤنس وحدتك !

وفتح الباب ، ورأى لوبين امامه صديقه جيم ميلر . !

وقال لوبين يخاطب جيم وقد انصرف الحارس :

ــ انى آسف ياجيم ! آسف جدا ولكن كيف كشفوا امرك؟ الم تقص عليهم الحكاية التى لفقتها لك تاهبا لمثل هذا الموقف الموقف ؟

فابتسم جيم ابتسامة مزيفة وقال :

ــ ان امرى لا يحزننى .. ولكنى افكر فى سالى وجراسى اقضى عليهما بالبقاء فى هذه الكهوف مدى الحياة ؟

فقال لوبين مغيرا مجرى الحديث :

ــ ولكن ما الذى جرى ؟

ــ لقد اردت ان اعمل على مساعدتك فانكشف امرى .

ــ الم اقل لك ان لا تكترث لما يصيبنى ؟

ــ لم يكن الاغضاء فى وسعى !

ــ ولكنى لست بالرجل العاجز .. لقد استطعت ان افتح قفل الزنزانة قبيل قدومك الان بدقائق فلما سمعت وقــع الاقدام اضطررت الى ايصاده ثانية وضحيت بثمرة عمـل بضع ساعات ولكن نبئنى بما حدث !

ــ رايتك وانت تساق الى السجن .. ورايت حزام ادواتك على مكتب الرئيس على اثر انصرافه فاردت ان اسرقه لكى آتيك به اذ كنت موقنا انك تستطيع بواسطة هذه الادوات ان تفتح الزنزنة مادمت قد استطعت اغتصاب باب الخزانة وفى هذه اللحظة فتح الباب ودخل الرئيس .. فاستولى على الارتباك وفطن هو الى الامر ولما لم يجد حزام الادوات على مكتبه تبينت له الحقيقة وامر بالتحقيق فشهد بعض الحراس بانهم راونا معا نتريض فى الكهوف فى اليوم السابق .. وقــد سألنى الرئيس عما اذا كنت اعلم مخبأ المفتاح فاجبته بالنفى وكانت هذه هى الحقيقة لانك لم تنبئنى بالمكان الذى اخفيته فيــه .. فامر الحراس بتفتيش دارى ولكنهم لم يعثروا فيــه على المفتاح . فامرهم بزجى فى الزنزانة .

فقال لوبين :

- والان علينا ان نسعى الى الفرار من هذه الزنزانة .

- وما الفائدة مادمنا سنعجز عن مغادرة الكهف ؟

- ومن قال لك اننا سنعجز ؟ اتجيد السباحة ؟

- نعم .. ولكنى لم اتدرب منذ آويت الى هذه الكهوف واخشى ان لا اتمكن من السباحة مسافة طويلة .

- حتى ولو كان ذلك سعيا الى النجاة من الموت .

وكاشفه لوبين بخطته .. ان مجلس الادارة يرسل اليهم الخامات والاخشاب عن طريق النهر فلماذا لا يجربون هذا الطريق ويسبحون فى النهر حتى ينتهوا الى مدخله الواقع خارج الكهوف !

فقال جيم معترضا :

- وما يدرينا ان الشلال يقع على بضعة اميال ؟

- فليكن لو اننا بقينا هنا لما كان هناك مفر من موتنا فلم لا نجرب هذه المحاولة .. ؟ فى سبيل سالى وجراسى يجب ان نقدم ..

- وهل نتركهم خلفنا ؟

- اذا عدنا الى الدنيا الاخرى بحثنا عن المنفذ السرى الذى هويت منه الى الكهف واتخذناه سبيلا اليه مرة اخرى لانقاذ زوجتك والطفلة .

فتنهد جيم وقال :

- يالوبين .. ان لك قوة فذة على تبديد الظلمات واشاعة الرجاء فى القلوب .. انى معك الى النهاية .

- شكرا .. والان علينا ان نتعاون فى فتح باب الزنزانة ..

لقد فتحتها وحدى ولكن الامر استغرق منى وقتا طويلا .

وصعد الاثنان السلم معا فامسك جيم بالقفل على حين دس لوبين المسمار فى الثقب واخذ يعالجه وكلما ادركهما التعب استراحا .

واخيرا .. بعد ساعة كاملة ، انفتح القفل ، وخرج الرجال من الزنزانة .

جلس الرجلان عند باب الزنزانة واقبل لوبين على الطعام الى كان بيكلى قد تركه هناك فالتهمه على عجل وابى جيم ان يشاطره اياه اذ تناول طعامه قبل ذلك بقليل .

واخيرا نهضا وخرجا من الكهف فسارا على ضفة النهر المجاور للزنزانة) تحجبهما الواح الخشب المصفوفة هناك عن اعين الحراس .

واشار لوبين الى صاحبه بان يزحف على الارض زحفا ثم همس فى اذنه وقد الصق اليها فمه :

- اخلع ثيابك كلها حتى لاتعوقنا .

وتجرد الرجلان من ثيابهما ووضعاها فى احد الاركان .

وزحفا على الارض حتى بلغا الضفة .

- ليت شعرى الى اية مسافة يمتد النهر فى باطن الارض انى اسائل نفسى متى .

- متى يدركنا التعب فنموت غرقا ؟

- نعم ..

- لن نموت غرقا .. سنصل الى الشلال حتما .

- انى اريد منك يا لوبين ان تزجى الى وعدا

- ما هو ؟
- اذا ادركنى التعب اثناء الرحلة فلا تحاول ان تساعدنى
واصل سيرك دون ان تكترث بامرى .
فابتسم لوبين وقال :
- اخطر لك ان فى وسعى ان اعدك بشىء من هذا القبيل؟
- من اجل سالى وجراسى ارجوك ان تعدنى . اذا اقبلت
تساعدنى متنا معا .. وبالتالى بقيت سالى وجراسى فى الكهف
مدى الحياة . اما اذا نجوت انت فقد تستطيع ان تنقذهما
ومن اجل هذا ارجوك ان تعدنى بما اريد !
فقال لوبين :
ما دمت تنظر الى الامر من هذه الناحية فلا مفر لى من
ان اعدك بهذا .. والان هيا بنا الى الماء ، واياك ان تحدث صوتا
ينبه الحراس .
و فى حذر ادلى الرجلان جسميهما فى الماء تدريجيا .
وكان الماء باردا جدا ، ولكنهما احتملا برودته فى سبيل
الحياة .
وبعد لحظات ابتلعهما سرداب النهر الممتد فى باطن الارض
وتواريا فى ظلامه الدامس .

الفصل الخامس عشر

مضى الرجلان يسبحان فى النهر .. وكان الظلام دامسا
لا يتبين المرء فيه طرف انفه .. ظلام طبقات فوق طبقات ..
وهما يشقان طريقهما فى الماء البارد .. صوب الحرية !

وقال جيم :
- الظلام مخيف !
فقال لوبين :
- تشجع !
- يخيل الى ان اعصابى وشيكة بان تنهدم .
- من اجل سالى وجراسى ينبغى ان تحتمل وتصبر ..
وظلا يسبحان الى ان ادركهما التعب ، فاستندا الى جدار
سرداب النهر وتعلقا بنتوء فيه ولبثا برهة ساكتين .
ولما اصابا من الراحة ما فيه الكفاية واصلا السباحة .
وفجاة شعرا بشىء يثقل رؤوسهما ويدفعهما الى اسفل
النهر وهما يجالدان فى سبيل النجاة دون ان يقويا على
الوصول الى سطح الماء .. وبعد لحظات انزاح هذا الثقل
فطفوا ثانية الى السطح ، وصاح لوبين بصاحبه :
- جيم ؟ هل انت بخير ؟
- نعم .. لقد كدت اموت .. ولكن ما هذا !
- انه غرارة جلدية ملأى بالخامات والبضائع من تلك
القرارات التى يرسلها مجلس الادارة الى الكهف عن طريق
النهر .. لقد صدمتنا ودفعتنا الى الاسفل لان السرداب
لا يتسع لنا ولها .
فتنفس جيم الصعداء وقال :
- لقد ظننت وانا فى هذه الظلمة الرهيبة ان شيطانا ركب
كتفى واراد ان يغرقنى .

وظــــلا يسبحان .. ويستريحان .. ويســـبحان .. ويستريحان .. والنفق ممتد امامهما برهبته .. وظلامه . ووحشته !

وفطن لوبين الى ان ضربات جيم قد ضعفت فقال يبث الشجاعة فى نفســه :

ـ تشجع يابنى .. ففى سبيل سالى وجراسى ينبغى ان تنجو .. ينبغى ان نصل الى الشلال .

ولم يجب جيم على هذه الكلمات المشجعة .. ولكنه بعد قليل قال فى صوت بائس :

ـ لوبين .. امض انت فى طريقك ودعنى .. فليس فى وسعى أن اواصل السباحة .

ـ تجلد .. انى قادم اليك على الفور .

وضرب لوبين فى الماء متجها صوب جيم حتى اذا لمسه امسك بذراعه وقاده الى الجدار ودعاه الى ان يصيب راحــة جديدة .

وقال جيم :

ـ دعنى انت وامض فى طريقك .

ـ محال .. لابد ان تنجو معى .

وفجاة شعر لوبين بشىء يصدم صدره فقال جيم :

ـ ما هذا .. قرارة اخرى ؟

ـ كلا .. بل لوح من الخشب .. من تلك الالواح التى تصل الى النهر عن طريق الكهف .

وامسك لوبين باللوح الخشبى وهو يقول :

ـ سيكون هذا اللوح مطيتنا الى الشلال .. علينا ان

نرقد فوقه ونجدف باذرعنا .. وبذلك لا ترهقنا السباحة .

ورقد الرجلان فوق اللوح الخشبى وطفقا يجــــدفان بايديهما .

وطفا بهما اللوح . وبلغا اخيرا مكانا ضحلا من النهــر لمسا فيه الارض باقدامهما فسارا فى الماء سيرا .

وكان الظلام لا يزال على اشتداده ورهبته .. والامل هو الشىء الوحيد الذى كان يعمر قلبهما بالنور والضوء .

وطالت سباحتهما وامتدت بضع ساعات واخــيرا سمعا دويا .. دى الشلال .. الذى يقع عند مدخل النهر .

وضاعفا من سرعتهما ونشاطهما .. واشتد التيار . وفجاة لاح لهما ضوء النهار .. لاح الضوء منبعثا من مدخل النهر .

وصاح جيم :

ضوء النهار .. النور .. الشمس .

فهتف به لوبين وهو يخشى ان تصيب المسكين لوثة من الجنون :

ـ صبرا يا بنى ! لا تنس ان المهمة لازالت شاقة لاتندفع مع الرجاء ولا مع الياس ! قد يستحيل علينا الخــروج من الشلال ! ولا تحدق فى الضوء والا آذيت عينيك .

وانتهيا اخيرا الى الشلال .

كانت الصخور شاهقة عالية متسامية فى الهواء والميــاه تنحدر عليها فى قوة واندفاع .

وارسل جيم بصره الى الصخور وقال :

ـ ويلاه ! كيف السبيل الى ارتقاء هذه الصخور .. انها

ملساء ! اقضى علينا بان نبقى فى الكهف الى الابد .. انضيع رحلتنا الى الشلال هباء منثورا .

فقال لوبين :

ــ صبرا .. دع الامر لى اتصرف فيه كما اشاء .

وفكر لوبين برهة ثم قال :

ــ اصغ الى ان الصخور عالية وملساء والسبيل الوحيد فى رايى استعمال هذا اللوح لبلوغ احدى الصخور والوثوب منها الى الصخرة التالية وهكذا . والان اسند اللوح بينما احاول ان ازحف عليه الى الصخرة فاذا بلغتها زحفت انت بدورك .

واسند لوبين طرف اللوح الى صخرة عالية على حين امسك جيم بطرفه الاسفل حتى لا ينزلق .. وضم لوبين ساقيه وقدميه على اللوح واخذ يزحف فى بطء وصعوبة ولكنه استطاع فى النهاية ان يبلغ طرف الصخرة ثم قال مخاطبا جيم :

ــ والان حل دورك يا صاح . سامسك انا بطرف اللوح الاعلى بينما تزحف انت .

وحاول جيم ان يفعل كما فعل لوبين ولكن الامر اعياه . كان منهوك القوى لا يستطيع ان يزحف على اللوح لم يكن فى وسعه ان يحمل جسده .

قال جيم :

ــ وما العمل الان .. ليس فى امكانى ان ازحف ..

ــ الا يمكنك على الاقل ان تتعلق باللوح ؟

ــ اظن ان ذلك فى وسعى .

ــ حسنا .. تعلق انت باللوح . وساحاول انا ان اجذبك الى الاعلى مع اللوح .

وكان لوبين بدوره منهوك القوى بسبب هذه السباحة الطويلة ولكنه لم يتردد فى ان يبذل اخر ما يسعه الجهد .. اخذ يجذب اللوح الى الاعلى وجيم متعلق به .. رويدا .. رويدا .. حتى تم له النجاح فاذا بالرجلان فوق الصخرة .

وبنفس الطريقة انتقلا الى صخرة اخرى .. ثم الى صخرة ثالثة .. ورابعة .

وقال لوبين :

ــ والان .. لم تبق امامنا الا صخرة واحدة للوصول الى سطح الارض .

ــ ولكن كيف نخرج ونحن مجردان من الثياب .

ــ هذا ما افكر فيه .. نعم لا بد لنا من ثياب .

وبعد برهة قال لوبين :

ــ اظن انه لا مفر لنا من البقاء هنا حتى يسدل الليل استاره وعند ذلك ساخرج وحدى واحاول ان نسرق ثيابا نرتديها .

وظلا جالسين على الصخور ثلاث ساعات وهما يتبادلات الحديث . وكان البرد قارسا تكاد تتجمد له الاعضاء .

واخيرا قال لوبين :

ــ اظن ان ساعة العمل قد حانت .

وخرج من بين الصخور متسترا بالليل .

وبعد ساعة رجع الى صاحبه يحمل بذلتين .

وقال جيم :

ـ من اين اتيت بهما ؟

فضحك لوبين وقال :

ـ اقتربت من نافذة احد البيوت فرايت امراة تعد بذلتى اسهرة لزوجها وابنها فيما اعتقد وقد وضعتهما على حافة الفراش فما كان منى الا ان تخطيت سياج النافذة ووقفت على مقربة منها دون ان تشعر بى وسعلت وادارت المراة راسها فرات امامها رجلا عاريا مجردا عن الثياب فصرخت فزعة ووضعت يديها على وجهها حياء .. فاغتنمت الفرصة وسرقت البذلتين وفررت هاربا .

الفصل السادس عشر

قال لوبين يخاطب جيم :

ـ والان هيا بنا نعود الى لندن فانى فى حاجة الى تناول الطعام والراحة .. وفى حاجة ايضا الى بعض الادوات .

ـ ولكن كيف تذهب ؟ سيرا على الاقدام .

ـ كلا .. لقد سرقت من المراة كيس نقودها ايضا !

ـ اوه .. انك لا تغفل عن شىء يا لوبين .

فضحك لوبين وقال :

ـ لو اننى كنت ممن يغفلون عن شىء ما كنت خليقا بان ادعى ارسين لوبين .

وبعد ساعة كانا الرجلان فى بيت لوبين القائم فى احدى نواحى لندن . فتناولا طعاما شهيا وناما نحو ساعتين ثم ايقظهما الخادم .

وارتدى لوبين قميصا اسود اللون اخفاه بوشاح ابيض لفه حول عنقه . وحذا جيم حذوه وقال :

ـ هل حانت ساعة العمل !

ـ نعم .. !

ـ ولكن ما الذى تنويه !

ـ سنمضى الان الى قصر هايفيلد معا وساحاول ان ابحث عن ذلك المنفذ السرى الذى هويت منه الى كهف العصبة السرية .

وعندما ارسلت الساعة دقاتها الاثنتى عشرة كان لوبين وجيم يتسللان الى قصر هايفيلد .

واقتربا من غرفة ينبع النور من تحت عقبها وقال لوبين همسا وقد الصق فمه باذن صاحبه :

ـ هذه غرفة الحارس الذى يتولى خفارة القصر .. ان للغرفة بابين فتنقر انت على هذا الباب فاذا استراب ونهض ينظر من الطارق فاجاته انا من الخلف .

وسار لوبين الى الباب الثانى وادار المقبض فى حذر .. ونقر جيم على الباب الاول .

وفزع الحارس حين سمع النقر .. وجعل يحملق ناحية الباب مذهولا .. ثم نهض وسار على اطراف اصابعه متجها الى الباب ولكنه لم يبلغه اذ فاجاه لوبين من الخلف وضربه على راسه بهراوة من الخشب صرعته ارضا .

والتفت لوبين الى جيم قائلا :

ـ والان يجب ان نبحث عن المنفذ السرى .. لقد دخلت القصر من هذه النافذة .. ووقفت فى هذه الغرفة .. ثم سرت فى هذا الدهليز وبعد ذلك دخلت هذه القاعة لكى اسرق الدمية اليابانية ولما غادرتها سرت فى الدهليز ثانية .. وانتهيت الى هذا البهو .. وفى هذا المكان بالضبط اصطدمت بغريمى

وسكت لوبين فقال جيم :

ـ وبعد ذلك ؟

ـ الحق انى لا ادرى ما الذى حدث بعد ذلك ؟ كان الصراع عنيفا بينى وبين خصمى فدرت فى المكان كثيرا ولست ادرى اى اتجاه اخذت .. ولكن مما لا شك فيه انى اصطدمت بالجدران والراى عندى ان نفحص هذه الجدران .

واخذ الرجلان يدقان على الجدران فوجداها صماءخالية من التجويف الداخلى .

فقال لوبين :

ـ عجبا . انى واثق من ان المعركة دارت فى هذا البهو !

وارسل بصره الى دولاب صغير قائم فى ركن البهو وقال :

ـ وهذا الدولاب .. ان من المحتمل جدا ان اكون قد اصطدمت بالدولاب فتزحزح من مكانه .. وربما كان المنفذ السرى خلفه .

وازاح الدولاب من وضعه ونقر على الجدار . !

وهتف يقول :

ـ لقد اكتشفت المنفذ .

وظل لوبين يفحص الجدار برهة فلم يجد فيه زرا يفتح به فقال :

ـ عجبا كيف ينشق الجدار اذن .

ثم اردف هاتفا :

ـ يا للغباوة .. حين اصطدمت بالجدار انشق من تلقاء نفسه دون ان احرك فيه اى زر .. اذن فهو يتحرك بالضغط

ووضع لوبين يده على الجدار وضغط بكل قوته فاذا به ينزلق الى الخلف وينكشف عن فجوة فى صدرها سلم حجرى ينحدر الى الاسفل .

وقال لوبين :

ـ ابق انت هنا بينما سادخل انا لارى كيف يفتح المنفذ من الداخل .

- واوسل لوبين بصره فى ارجاء السرداب فالفى ان خلف الباب زنبركا يكفى ان يجذب الى الداخل او يضغط من الخارج حتى ينفتح الباب . ففتحه ودعا جيم الى اللحاق به وهـــو يقول :

- عندما اصطدمت بالدولاب انزلق من مكانه فاصطدمت بالجدار فانفتح الباب السرى ولا شك انى تدحرجت على هذه الدرجات ؟ حتى انتهيت الى القاع . فهل فى القاع باب يفضى الى الكهف ؟

وصح راى لوبين .. فعند اسفل الدرج كان هناك باب سرى منحوت فى الارضية .. وكان الباب عبارة عن قطعة من الصخر تتصل به سلسلة ضخمة من الحديد فى نهايتها حجر هائل يوازن الباب الصخرى .

وقال لوبين :

- الان وضح الامر .. انظر .. هذا الباب مقفل بهـذه الصخرة فاذا داس المرء على الباب هوى الى الاسفل وانفتح فاذا نزل المرء الى الكهف ارتد الباب الى موضعه لان ثقـل الصخرة المشدودة الى السلسلة انما جعل للموازنة والترجيح والان عليك ان تقف على الصخرة بينما اقف انا على الباب لانى لا اريد ان انزل الى الكهف الا بعد ان استوثق من ان الميدان خال من الحراس .

ووقف لوبين على الباب السرى على حين وقف جيم على الصخرة المشدودة الى السلسلة .

وقال لوبين :

- والان خفف ثقلك عن الصخرة قليلا حتى يفتح الباب رويدا رويدا .

وانفتح الباب فرجة صغيرة وبدت انوار الكهف

وارهف لوبين الاذنه للسمع فلم ير به شىء فقال :

- الان ساهبط الى الداخل

وثب الى ارض الكهف .

سار لوبين مسرعا الى بيت ميلر الواقع على قيد عشرين باردة فنقر على نقرا خفيفا .

وفتحت مسز ميلر الباب وحين راته هتفت تقول :

- انت .. انت .

- اسرعى .. ابن جراسى .. الفرار اسرعى

فغابت سالى فى البيت لحظات عادت بعدها وهى تجر ابنها خلفها . وانطلق الجميع صوب نهاية الكهف .

وكان الباب قد ارتد الى مكانه لولا فرجة صغيرة ادلى منها لوبين حبلا فجذبه فعرف جيم انهم جاءوا ففتح الباب السرى وادلى لهم سلما من الحبال تعلقوا به وصعدت سالى اولا .. ثم تبعتها جراسى .

ولكن قبل ان تبلغ جراسى الباب سمع لوبين وقع اقدام الحارس فتهيا للقائه .

ترك السلم مدلى وجراسى متعلقة به ووقف خلف الممشى

وبرز الحارس وهو خالى الذهن من كل امر مريب !

وراى السلم وجراسى .. ولكن قبل ان يتحرك كان لوبين قد برز اليه من خلف المنعطف وصرعه ارضا بضربة على راسه من هراوته الحديدية .

وفى اللحظة التالية كان الجميع فى السرداب وقد اوصدوا الباب السرى خلفهم .

خرج الجميع الى الليل .. الى النجوم .. والسماء .. والقمر .. والاشجار .. الى الحياة .. الى الحرية .. الى الطبيعة .. الى الدنيا .

وهتفت سالى تقول :

ـ الدنيا .. الدنيا .. ومالت الى لوبين تقبله

فابتسم لوبين وقال :

ـ هذه القبلة عندى تعدل كنوز الارض كلها .

وكانت هذه القبلة هى الجزاء الوحيد الذى اصاب عمالقى من متاعب وما استهدف له من اخطار .

« تمت »